

(دمشق) تموز : سنة ١٩٢٩ م الموافق المحرم وصفر سنة ١٣٤٨ هـ ١٠٣

تصحيح نهاية الارب

اغلاط الجزء السابع

كنا تتبعنا الأجزاء الستة من هذا السفر النفيس الذي تصدره مطبعة دار الكتب المصرية فنشرنا أغلاطها في مجلد السنة السادسة (ص ٣٨— ٤٩ — ١١٤ — ١٥٢ — ٢٠١ — ٢٥٧ — ٢٩٤ — ٤٠٦) ومجلد السنة السابعة (ص٣٩٦) ثم تأخر صدور الجزء السابع نحو ثلاث سنين حتى جاءنا أمس فاذا هو في حلة من التصحيح والتعليق لم نأنس مثلها في الأجزاء الاولى مع فرط عناية بمقابلة النسخة على نسخ أخرى واستخراج زبدة خالصة ترتاح لها النفس ويطمئن اليها القلب . ومع هذا كله فقد عثرنا في هذا الجزء السابع على طائفة من الأغلاط رأينا من الفائدة نشرها في مجلتنا تتميماً لعملنا السابق وخدمة لهذا الكتاب النفيس ومشايعة لمصححه الفاضل على حسن سعيه . فيكون لنا فضلة ما يستحقه من الثواب . كما يكون له منا ومن القراء كل شكر وثناء وإعجاب .

فمن الأغلاط التي عثرنا عليها في هذا الجزء وأمكننا التفطن لصوابها ما جاء في :

صفحة ٣ سطر ٥ (أتي صلى الله عليه وسلم بما أعجز البلغاء . وأخرس الفصحاء . وفلّ حدّ المؤرخين) صوابه (المعارضين) والا فإنه لم يكن في بلاد العرب في زمنه صلى الله عليه وسلم طائفة من علماء التاريخ يكسر شوكة علمهم . وانما هم معارضون يفلّ حدّ معارضتهم .

ص١٢ س١ — (وقال أزدشير بن بابك) صوابه (أردشير) بالراء المهملة وهو

من الأغلاط التي عمت بها البلوى. على ان (أردشير) كتب على الصحة في الصفحة ٢٧٣ من الكتاب .

ص١٩ س٦ — (فوصف نفسه تعالى جدّه بأنْ علّم بالقلم . كما وصف به نفسه بالكرم) كلمة (به) مقحمة والصواب إسقاطها .

ص١٩ س٦ — (واعتدّ بذلك من نعمه العظام) صوابه (ذلك) لان اعتدّ هنا بمعنى عدّ وهو يتعدى بنفسه .

ص١٩ س١١ — (فلينعم ربّها وإصلاحها) قوله (ربّها) اي ربّ الدواة ولعل الأصوب (ريّها) من الريّ : اي ان على الكاتب ان يعتني بترْوية دواته بالحبر و يتعهدها بسائر ضروب الاصلاح .

ص ٢٠ س١٥ — (وتركُ الشكل على الخطأ) ضُبط (تركُ) بالرفع والصواب جره عطفاً على (الكسوف) ليكون مما يتحرز منه الكاتب لا مما يحتاج اليه .

ص٢٤ س١ — قال في صفة أقلام (شاكلت الذهب في ألوانها . وضاهت الحرير في لمعانها . بطيئة الحفا . نمرةُ القوى) صوابه (مُمَرّةُ القوى) اسم مفعول من أمرّ الحبل فتله فتلاً شديداً . والممرّ الحبل المفتول كذلك . والقوى جمع قوة الطاقة من طاقات الحبل . والمراد وصف الأقلام بالقوة والصلابة واشتداد الأسر .

ص٢٥ س٢ — وقال في صفة الأقلام ايضاً (نثرت الواناً تزري بورد الخدود . وأبدت قامات تُفصح بأوَد القدود) صوابه تفضح أوَد القدود . اي ان استقامة هذه الاقلام تخجل وتفضح ما في قدود الحسان من الأود والاعوجاج . وبذلك يحصل التناسب بين (تزري) و (تفضح) .

ص٣٤ س١٦ — سرد المؤلف ما يحتاج اليه الكاتب من الامور . ومنها معرفته للأحكام السلطانية « فانه قد يأمر بامر فيعرف منها (اي من الأحكام السلطانية) كيف يخلص قلمه على حكم الشريعة المطهرة) صوابه (الى حكم) لان فعل (خلص) بمعنى (وصل) وهو يتعدى بحرف الجر (الى) اي انه بمعرفته الأحكام السلطانية يهتدي قلمه الى حكم الشريعة ولا يضلّ عنها . ومن شواهد تعدية فعل خلص بإلى ما جاء في حديث البخاري من قول هرقل (فلو أعلم اني أخلص اليه لتجشمت لقاءه) و يحتمل ان يكون التحريف

في (يخلص) ويكون أصلها يحض قلمه على حكم الخ ·

ص٣٧ س٧ — (يقع فيه كالواقف بمكان غيره) لعل صوابه يقف فيه كالواقف الخ ·

ص ٤٩ س١٢ — (مع طرح ذكر المشبه من البيّن لفظاً وتقديراً) هكذا ضبطت (البيّن) بتشديد الياء فعلّق المصحح على ذلك قائلاً انه غير ظاهر ولعل صوابه « من الشيئين يريد الطرفين » · اقول انما جاء الإشكال من تشديد ياء « البين » وهي غير مشددة اذ هي (بين) مخففة الياء بمعنى وسط واكثر استعمالها ظرفاً وتستعمل اسماً فتدخل عليها اللام فقوله (مع طرح ذكر المشبه من البين) اي من بين الكلام وتضاعيفه · نعم قد يكون هذا الاستعمال من صنيع المولدين · ويظهر انه قديم من عهد المؤلف · وما زال مستعملاً في كلامنا الدارج الى اليوم ·

ص ٦١ س١٤ — (بل جعل الانطلاق والبسط الخ) صوابه (بل جعل البسط) باسقاط كلمة (الانطلاق) لان بيت الشعر الذي فيه كلمة الانطلاق وهو قوله :

(لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق)

لم يسبق له ذكر بعدُ · وانما ذكرت آية (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) فلعل البيت كان متقدماً فأخر سهواً أو ان الناسخ سبقه قلمه فكتب كلمة (الانطلاق) ·

ص٩٧ س١٦ — (حدا بابي ام الرئال فأجفلت نعامته من عارض متلبّب)

قال المصحح تعليقاً على كلمة (متلبّب) في الاصل متهلب وما اثبتناه عن كتاب (حسن التوسل) اذ هو المناسب لما هنا ولعل ما في الاصل مقلوب عن متلهب اي متوقد غيرة وحمية · والمتلبّب المتحزم بالسلاح يريد المتهيّ للقتال اه قول المصحح · اقول كان الواجب على المصحح وقد ارتضى نسخة (المتلبّب) ان يصحح كلمة (عارض) بفارس لان الفارس هو الذي يتلبّب ويتحزم بالسلاح · أما وقد ابقى كلمة (عارض) على حالها — والعارض هو السحاب المعترض في الأفق — فلم يبق في إمكاننا قبول كلمة (متلبّب) وانما نعوّل على ما جاء في الاصل من كلمة (متهلب) : فتكون (متهلّب) اسم فاعل من تهلّب اي انتسب الى آل المهلب لان الممدوح بالقصيدة هو المهلب بن ابي صفرة · او ان كلمة المتهلب محرفة عن (متهلل) والعارض المتهلل هو المتلألئ بلمعان البرق وانصباب المطر · قال ابو كبير الهذلي يصف تأبط شراً :

(واذا نظرت الى أسرّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل)

وتمكن معرفة حقيقة الكلمة إن كانت (متهلب) او (متهلل) بالرجوع الى القصيدة التي منها البيت فيرى ان كانت بائية او لامية .

ص٩٨ س١٢ — قول المتنبي :

(فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيش كلهن قلاقل)

صوابه (قلاقل عيس) بالسين المهملة وهي النياق . يقول انني حركت بسبب الهم الذي حرّك أحشائي قلاقل عيس اي ابلاً خفافاً في السير والضرب في البلاد . والا فان (العيش) ليس له قلاقل . ثم لايحسن ان يرجع ضمير (كلهن) الا لقلاقل الابل . على ان الشائع على ألسنة الناس (قلاقل عيش) بالمعجمة .

ص ١٠٨ س ٦ — (فان زادت القرائن على اثنين) صوابه على اثنتين لان القرائن جمع قرينة .

ص١٢٥ س١١ — ذكر المؤلف من أنواع البديع (عتاب المرء نفسه) وقال إن هذا النوع من أفراد ابن المعتز ولم يُنشد (اي ابن المعتز) عليه سوى بيتين ذكر ان الآمدي أنشدهما عن الجاحظ . هذا ماقاله المؤلف وعلق عليه المصحح قوله : « ان الذي في نسخة تحرير التحبير (الأسدي) مكان (الآمدي) قال ولم نقف فيما بين ايدينا من المظان على ما يرجح احدى الروايتين . اقول ولكن الظاهر ترجيح رواية الاسدي لأن (الآمدي) مات سنة ٣٧١ ﻫ وكان ابن المعتز مات قبله بنحو ٧٥ سنة اي في سنة٢٩٦ﻫ فكيف يروي عنه .

ص١٤٠ س١٥ — (هل لا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أينا)

صواب (هل لا) ان تكتب متصلة (هلاّ) لانها أداة تحضيض . وهي في الاصل مركبة من (هل) و (لا) واذا دخلت على الماضي أفادت اللوم على ترك الفعل كما هنا .

ص١٥٩ س١٥ — (اللهم اني إسألك رحمةً تهدي بها قلبي . وتجمع بها امري . وتلمّ بها شعثي . وتصلح بها غايبي . وترفع بها شاهدي) . ثم قال المؤلف (فناسب صلى الله عليه وسلم بين قلبي وامري وغايبي وشاهدي الخ) ولكن اين المناسبة بين غايبي وشاهدي فصوابه اذاً (وتصلح بها غائبي . وترفع بها شاهدي) وان المناسبة بين الغائب والشاهد

ظاهرة . كأنه قال أصلح برحمتك باطني وظاهري . أو سري وعلانيتي . أوماغاب عني فلم أستطع اصلاحه كما تصلح ماشهدته ووقع تحت حوامي .

ص ١٦٤ س٩ — (وكان ابن عبيد الله قد اختلت حاله) صوابه وكان عبيد الله بدليل قوله في السطر قبله (كقول عبيدالله) . ثم ان الرقم (١) ينبغي ان يوضع في السطر الذي قبله على قوله (عبيد الله بن عبد الله) .

ص١٨٦ س٨ — (وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى بمثل « نسأل الله دفع المحذور الخ » قوله (بمثل) صوابه مثل باسقاط الباء لان مثل خبر (يكن) والمعنى وليكن ختام فصولك في هذا المقام مماثلاً لهذه الجملة . وليس الموضع هنا من المواضع التي تزاد فيها الباء لان الكون غير منفي .

ص١٨٨ س٧ — (فتخير في الألفاظ ارجحها وزناً الخ) صوابه من الألفاظ وهو ظاهر .

ص١٩٣ س٨ — (وراق التوسيع فيه . وعذب بسط الكلام فيه) لعل الصواب التوسع منه و بسط الكلام فيه او التوسع فيه و بسط الكلام عليه . وبذلك يُجتنب التكرار .

ص١٩٥ س١٠ — يصف استسلام عدو (فلاذ بالالتجاء الى صلحنا . وعاذ بإسناد الرجاء الى كفنا عنه وحلمنا) ضُبط (إسناد) بكسر اوله مصدر (أسند) ولكننا لا نرى المعنى يستقيم عليه فلعل الصواب فتح همزة (أسناد) على انه جمع (سنَد) وهو مايلتجئ اليه الخائف من حائط او جبل او نحوهما : فالعدو التجأ الى صلحنا فكان ذلك ملاذاً له وعاذ برجاء صفحنا عنه وحلمنا فكان ذلك الرجاء سنداً وموئلاً له . ولكن ماقلناه لا يستقيم مع قوله (الى كفنا عنه) فلعل اصله (من كفنا) وتكون (من) بيانية أبانت المراد من أسناد الرجاء .

ص١٩٨ س١٥ — (استدرجناهم الى مصارعهم واستجريناهم ليقربوا في القتل من مضاجعهم) قال المصحح لعل صواب (استجريناهم) (أجريناهم) يعني من الجري بمعنى العدو والركض . اقول بل لعل الصواب ان اصله (استجررناهم) بمعنى جررناهم وهو المناسب لقوله قبله استدرجناهم .

ص١٩٩ س١٧ — (وجرّ لنفسه بموالاة التتار عناءً كان عنه في غنى . وأوقع

روحه بمظافرة المغول في حومة السيوف التي تخطفت اولياءه من هنا ومن هنا) قوله (بمظافرة) لعل صوابه (بمضافرة) بالضاد مصدر ضافره اذا عاونه . أما ظافره بالظاء فلم نجده اتى بمعنى عاونه . نعم اختلف علماء اللغة في (تظافروا) بالظاء من التفاعل هل يكون بمعنى (تضافروا) بالضاد اذا تعاونوا ؟ وعليه اقول هل صحة (التظافر) تستدعي صحة (المظافرة) بمعنى المعاونة وان لم يذكروها في المعاجم . هذا فعل (التواصي) مثلاً ورد في فصيح الكلام : فهل نحمل عليه فعل (المواصاة) فنستعمله بمعنى التوصية وان لم يذكروه ؟؟ .

ص ٢٠١ س٨ — ذكر المؤلف انه يجب أن يراعى في التقاليد والمناشير والتواقيع امور (منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة او الحال او قدر النعمة او لقب صاحب التقليد) قوله (اوالحال) لعل صوابه (او المال) لان تواقيع الملوك كما تصدر بالخلع والرتب تصدر ايضاً بالمال والصلات .

ص ٢٠٤ س ١١ — (وأظلتنا بوادر الفتوح . وأظلت على الاعداء سيوفنا التي هي على من كفر النعمة دعوة نوح) لعل صوابه (وأطلت على الاعداء) بالطاء المهملة لان (الإظلال) بالظاء المعجمة للرحمة والسيوف لا تظلهم برحمتها . وانما تطل عليهم بصواعق نقمتها . على أن فعل (الإظلال) انما يتعدى بنفسه لا بعلى .

ص ٢٠٥ س ١٥ — يصف العدو الذي استسلم (فأبصر بالخدمة موضع رشده وأدرك بسعيه نافر سعده) قوله (بالخدمة) صوابه (بالحذق) فان الحذق هو سبب إبصاره رشده . كما ان سعيه هو سبب ادراكه سعده . اما (الخدمة) فانما تصح إرادتها على استكراه وتكلف .

ص ٢١٤ س١٥ — يصف الرسالة التي يقال ان سيدنا ابابكر أرسلها الى سيدنا علي : (هي والله من بنات الحقائق . ومخبآت الصنادق) صوابه (من بنات الحقاق ومخبآت الصناديق) اما الحقائق فجمع حقيقة . وهي بمعناها العلمي قلما استعملها اهل اللسان في ذلك العهد . فصوابها اذاً (الحقاق) بكسر الحاء جمع (حُقة) بضمها وعاء من عاج او خشب تصان به الطيوب والجواهر . والصندوق معروف وجمعه صناديق لا صنادق . وذلك لمكان الواو قبل آخر مفرده . ولم يرد (صندق) من دون واو حتى يجمع على صنادق . وما قلناه في ضبط الكلمتين : (الحقاق) و(الصناديق) هو الثابت في نسختنا المخطوطة من كتاب (محاضرة

الابرار) لابن عربي . واراد بقوله في صفة الرسالة انها من (بنات الحقاق) انها من جنس مايحفظ في الحقاق من الجواهر . وكرائم التحف . وفي بعض نسخ هذه الرسالة (درر الحقاق) مكان (بنات الحقاق) والمعنى واحد .

ص٢١٥ س٤ — (أنبأنا ابوالنفاح) وهو مولى ابي عبيدة . قال المصحح انه كذلك في نسخة (محاضرة الأبرار) المخطوطة المحفوظة في دارالكتب المصرية قال : والذي في الأصل (ابن المتاح) . أقول وفي نسختي (محاضرة الابرار) المخطوطة ذُكر اولاً باسم (ابي الشياح) ثم جاءت في نسختي المذكورة زيادة لم اجدها في غيرها من النسخ وفي هذه الزيادة قوله (وذكر مولى ابي عبيدة ابوالنفاح بالنون والفاء) هكذا ضبطه بالحرفين النون والفاء . ثم جاء في الزيادة المذكورة قوله (قال ابوحامد قال ابوالتياح) : فاسم مولى ابي عبيدة اذاً تصحف الى اربع صور (ابوالنفاح) (ابن المتاح) (ابوالشياح) (ابوالتياح) وأوثقها الصورة الاولى لما مر من ضبطها بالحرفين النون والفاء صراحةً .

ص٢١٧ س٤ — (والباطل عنوف عسوف) قال المصحح (لم نقف على هذه الصيغة فيما لدينا من الكتب) أقول وفي بعض النسخ (نسوف عصوف) فالنسوف إما من قولهم (عقبة نسوف) اذا كانت طويلة شاقة تتعب سالكها . واما من (بعيرنسوف) اذا كان يقتلع النبت من أصله بمقدم فمه . و (عصوف) هي الريح الشديدة .

ص٢١٧ س٥ — (والتعريض سجال الفتنة) قال المصحح (السجال) جمع سجل وهو الدلو العظيمة . اقول ولعل الصواب مافي نسختي المخطوطة (شجارالفتنة) و (الشجار) من شجر الطبيب فم المريض اذا فتحه بواسطة عود ثم صب فيه الدواء والعود المذكور هو الشجار . وفي حديث سعد رضي الله عنه ان أمه قالت له (لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد (ص) قال فكانوا اذا أرادوا ان يطعموها او يسقوها شجروا فاها اي ادخلوا فيه الشجار ففتحوه وصبوا فيه الطعام والشراب . ومعنى كون (التعريض شجار الفتنة) ان التورية في الكلام والتلميح به الى عيوب الخصوم وسيئات اعمالهم تثير الحفائظ وتهيج الأحقاد ويكون ذلك كالشجار يفتح به فم الفتنة بعد ان كان مطبقاً فتلتهم الأخضر واليابس .

ص٢١٨ س٧ — (ويسري فيه ظعنك) لعل الأصوب ما في النسخة الأخرى

(و يستشري فيه ضغنك) من استشرى الامر عظم وتفاقم او من استشرى الرجل في الامر لج وتمادى . و(الضغن) الحقد . ومعنى الجملة هذه يلتحم بمعاني الجمل التي قبلها وبعدها باكثر مما يلتحم معنى جملة (و يسري فيه ظعنك) .

ص٢١٨ س١٠ — (او مثلك ينقبض عليه الفضاء) لعل الأصوب ما في النسخة الأخرى (يُغصّ عليه الفضاء) من قولهم غصّ المكان بالقوم امتلأ بهم وضاق عليهم وأغصّ فلان علينا الارض اذا ضيقها .

ص٢١٩ س٩ — (ولانبلغ مراداً الى شيء الا بعد جرع العذاب معه) الصواب إسقاط احدى الكلمتين : اما إسقاط (الى شيء) واما إسقاط (مراداً) كما في نسختي المخطوطة وعبارتها هكذا: (ولانبلغ الى شيء الابعد جرع الغصص معه) وكأنه ضمن (نبلغ) معنى نصل ولذا عداه بحرف الجر (الى) وقد قرن في هذه النسخة (الغصص) بالجرع وهو أشبه بكلام البلغاء : فانهم اكثر مايقرنون (الذوق) بالعذاب فيقولون (ذاق العذاب الواناً) و(الغصص) بالجرع والتجرع . قال بعض الأذكياء . في تعريف الدهاء : هو (تجرّع الغصص . وترقّب الفرص) .

ص٢٢٠ س١ — (ولولا سنك) الاظهر ما في نسختنا المخطوطة (ولولاحداثة سنك) .

ص٢٢٠ س٢ — (وانهض الخير لك) لعل الاصوب ما في نسختنا المخطوطة (وأرهص الخير لك) قال في الأساس (ومن المجاز أرهص الشيء أثبته وأسسه . وأرهص الله فلاناً للخير جعله معدناً له ومأتى) فعلى المعنى الثاني يكون في عبارة الكتاب قلب و يكون الأصل (وارهصك للخير) .

ص٢٢١ س٨ — (وخصه بمزية . وأفرده بحالة) لعل الاصوب ما في نسختنا المخطوطة (وأفرده بجلالة) اذ المقام يقتضي الافراد بالمزايا الحسنة . وكلمة (الحالة) تشمل القبيحة . و (الجلالة) بالتاء عظم القدر اما (الجلال) من دون تاء فهو التناهي في عظم القدر ورفعة الشان . ومن ثمّ استعمل المتأخرون (الجلالة) في جانب الملوك و(الجلال) في جانب المولى عزّ وجلّ .

ص٢٢٣ س٤ — (قال ابو عبيدة فلما تأهبت للنهوض قال لي عمر : كن لدى الباب هنيهة فلي معك دور من القول) اول ماخطر ببالي عند قول عمر (دور من القول)

انه شاهد لقول كتّاب هذا العصر « وانا اقول في دوري » ترجمةً للعبارة الافرنسية (A mon tour) ولا نبقى حاجة الى العدول عن كلمة (دور) الى كلمة (نوبة)٠ لكن خاب ظني لما رجعت الى نسختي المخطوطة فوجدت العبارة فيها هكذا (فلي معك ذَرْءٌ من القول) فعلمت اذ ذاك انها الصواب وان كلمة (دور) محرفة عن (ذرء) بالهمزة او عن (ذرو) بالواو وكلتاهما بمعنى واحد قال القاموس وشرحه (ويقال بلغني ذَرْءٌ من خبر اي شيء منه وطرف منه٠ والذرء ايضاً الشيء اليسير من القول : قال الشاعر :

(أتاني عن مغيرة ذَرْءُ قولٍ وعن عيسى فقلت له كذا كا)

وقالوا في مادة ذرو (بلغني عن فلان ذَرْوٌ من القول) اي طرف منه و (أخذ في ذَرْوٍ من الحديث) اي انه عرّض ولم يصرح ٠ فلا جرم ان تكون كلمة (دور) محرفة عن كلمة (ذرو) ٠ ومثل هذا التحريف قلما يمكن التحرز منه ٠

ص٢٢٣ س٥ — (لحقني بوجه يبدي تهللاً) قوله (يبدي تهللاً) ليس من جنس كلام العرب فلعل صوابه ما في نسختي المخطوطة (ينـدى تهللاً) بالنون من ندي الشيء ابتل ٠ ويستعمل مجازاً في مثل قولهم (فلان ندي الكف) اذا كان سخياً جواداً ٠ واذا نسبت النداوة الى الوجه كان المراد بها الحياء او التهلل والبشاشة (ووجهك من ماء البشاشة يقطر) ٠

ص٢٢٥ س١١ — (يمص إهابك ٠ ويعرك اديمك) (الإهاب) الجلد ولا معنى لمصه : لا حقيقةً ولا مجازاً فلعل صوابه ما في نسختي المخطوطة (يمضّ) بالضاد المعجمة من مضه اوأمضّه الامر اذا أحرقه واوجعه وآلمه ٠ ولا ريب ان قولك لآخر فلان يمضّ جلدك اي يوجعه خير من قولك له (فلان يمص جلدك) ويؤيد ما ذهبنا اليه قولهم (فلان أمضّه جلده فدلكه) اي شعر في جلده بحكة أو كالٍ فحكه وفركه ٠

ص٢٢٥ س ١٤ — (فتودّ أن لو سُقيت بالكأس التي أبيتها ٠ ورُددت الى حالتك التي استغويتها) لا معنى للاستغواء هنا ولعل صوابه ما في نسختي المخطوطة (الى حالتك التي استبرأتها) من استبرأ الشيء اذا طلبه الى النهاية ليعرفه ويقطع الشبهة عنه ٠ فعمر يقول لعلي رضي الله عنهما : أتمنى الرجوع الى حالتك التي كنت على بينة منها ووثوق بها٠

ص٢٢٨ س١ — (ولقد سمعت أماثيلك التي لغّزت فيها الخ) ٠ ضُبط (لغّزت)

بالتشديد وقال مصححه « كذا ورد الفعل بتشديد الغين في اساس البلاغة » اقول لكنني لم أجده جاء بالتشديد في كتب اللغة بل ان بعضها اقتصر على (ألغز) كلسان العرب وبعضها ذكر ما يفيد انه جاء ثلاثياً ايضاً وهذا كالقاموس فانه قال (اللغز ميلك بالشيء عن وجهه) فتفسير اللغز بالميل دليل على انه انما يفسر مصدر الثلاثي . نعم في اساس البلاغة طبعة دار الكتب المصرية (سنة ١٩٢٣م) قال : (ألغز ولغّز) وشدد الغين لكن بالشكل لا بالحرف . وعندي ان في هذا التشديد نظراً . فلعله سهو من الناسخ او الطابع .

ص٢٢٩ س١٢ — (وفي الله سلوة عن كل حادث . وعليه التوكل في كل الحوادث) . لعل الأصوب ما في نسختي المخطوطة (وفي الله سلوة عن كل كارث الخ) وبذلك يجتنب التكرار او شبه التكرار بين (الحادث) و (الحوادث) .

ص٢٣٣ س١١ — (حتى قاءت « اي الارض » أُكُلها معناه أخرجت خبزها) هكذا فسّر الأُكُل بالخبز ولعل صوابه (الخير) وبيانه ان الأُكل بمعنى الثمرة ومنه قوله تعالى (أُكُلها دائم) و (كلتا الجنتين آتت أُكلها) ويستعمل في كلام البلغاء مجازاً بمعنى الحظ والرزق الواسع ومنه قولهم (ان فلاناً لعظيم الأُكل من الدنيا) اي هو ذو حظ ورزق واسع منها . وجملة (حتى قاءت أُكلها) من كلام السيدة عائشة في صفة عمر رضي الله عنهما تقول انه في خلافته ذال الارض حتى قاءت اي لفظت ما فيها من الكنوز وأخرجت ما استقر في جوفها من الرزق والخير للمسلمين . ولعمري ان تفسير الأُكل بالخبز يقلل من شأن الأُكل و يحقر من مجهود عمر . بل لو قال قائل ان المراد بالخبز الحنطة لم تكن الحنطة شيأ مذكوراً بالنسبة الى الخير العظيم المختلف الألوان الذي ناله المسلمون في عهد عمر . فالصواب اذاً تفسير الأُكل بالخير لا بالخبز .

ص ٢٤٠ س ١٠ — (واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيأ يكفيك وفادة الوفود واستماحة الممتاح) قوله (شيأ) لعل صوابه (سبباً) اي اجعل من عدلك وانصافك سبباً الى طمأنينة رعيتك وهدوئهم في منازلهم واكتفائهم بذلك عن تحمل مشقة السفر اليك للسؤال والاستماحة .

ص٢٤٠ س١١ — (فان كل امرء انما يجمع في وعائه الا الأقل الخ) صوابه الأقل باسقاط (الا) .

ص ٢٤١ س٣ — (لم اكن والله زوّرته قبلُ ولا رويته بعدُ وانما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة) زوّرت الكلام هيأته في نفسي قبل التصريح به . وقوله (رويته) ضبط بتخفيف الواو ولعل الأصوب فيه تشديدها و يكون اصله (روّأته) مهموزاً: يقال روّأ في الامر وروّى فيه اذا نظر فيه وتأمل وتفكر . ومنه (الروية) . و بهذا المعنى تصح الجملة اشد التحاماً بما قبلها وبما بعدها .

ص ٢٥٤ س ٣ — (فما الذي يبرد غليلك . و يشفي إجاج صدرك) قال المصحح في تفسير (الإجاج) انه جمع إجة بمعنى شدة الحر وتوهجه . وهو كما قال غير ان استعمالها مجازاً في معنى حرارة الصدر غيظاً قليل الورود في كلام البلغاء ودليل ذلك ان الزمخشري لم يشر اليه في أساسه . فالكلمة اذاً مصحفة عن (أحاح) بهمزة مضمومة وحائين مهملتين ومعناه العطش . وقد كثر استعماله مجازاً في الغيظ وحرارة الغم . وهاك ما قاله القاموس وشرحه (والأحاح بالضم العطش والغيظ وقيل اشتداد الحزن او العطاش . وسمعت له أحاحاً اذا سمعته يتوجع من غيظ او حزن قال الشاعر : (يطوي الحيازيم على أحاح) والاحاح حزازة الغم كذا بخط الجوهري بزائين (معجمتين) وفي نسخة حرارة برائين (مهملتين) اه .

اقول ومنه ايضاً قول الحماسي عبد الشارق بن عبد العزى :

(فباتوا بالصعيد لهم أحاح ولو خفّت لنا الكلمى سرينا)

وقد فسّر شراح الحماسة (الأحاح) بالعطش وفسره آخرون بالانين المنبعث عن الألم .

ص ٢٥٥ س١٧ — (تنفر عنه القلوب . وتغض عنه الأبصار) لعل صوابه (تنفر منه) لا عنه . تجنباً للتكرار مع (عنه) الثانية .

ص ٢٦٠ س٥ — (من ذلك ما كتب به عبد الحميد بن يحيى بالوصاة على انسان) صوابه (بانسان) لأن الوصاة اسم مصدر لأوصى وهو يتعدى بالباء لا بعلى .

ص ٢٦٦ س ١٠ — (في ظل ظليل . ونسيم عليل . وريح بليل . وهواء ندي . وماء رويّ) لعل صوابه (وهواء عَذِي) بالذال المعجمة والياء المخففة وتشدّد اي طيب ملائم للصحة واكثر استعماله في المكان يقال (ارض عذية) كما تقول طيبة المناخ بعيدة عن الوخم

و يقول عامتنا اليوم (عدي) بالدال و (نجد العدية) . اما قوله (ندي) فمعناه المبتل . وعلى فرض صحة استعماله في كلام البلغاء يكون مكرراً مع قوله قبله (ريح بليل) ولا يخفى ان التأكيد خير من التأسيس .

ص٢٦٧ س٥ — (فذاك والله اكنف ظلالك في العاجلة . وأروحها في الآجلة) لعل صوابه (اكثف) بالثاء المثلثة . وان توصيف الظل بالكثافة أشبه بكلام البلغاء من وصفهم له بالكنف : فان (الكنف) حياطة الشيء من أكنافه وجوانبه . والظل انما يكون من فوقه . فبين الكنف والظل شبه تضاد .

ص١٦٧ س٩ — (وهل حلا بصدرك ان تظفر بفوت مزيح او موت مريح) قوله (حلا) بالالف من (حلا يحلو) من الباب الاول اذا صار حلواً . وهو في كلام البلغاء انما يستعمل لما يكون مذاقه حلواً في الفم . أما مايكون حلواً في الصدر او القلب او العين فيستعمل معه فعل (حَلِي يحلى) من الباب الرابع : يقال حَلِيَ الشيءُ في عيني وحليَ في قلبي وحليَ في صدري . قال الاصمعي (حلي في عيني بالكسر وحلا في فمي بالفتح) وقال في اساس البلاغة (ومن المجاز حَليَ فلان في صدري وفي عيني قال الشاعر :

(فلم يحل بالعينين بعدك منظر)

ص٢٦٧ س١٣ — (أم من يرغب عن مكاثرة بمن ينسب الربيع الى خُلقه) قال المصحح الاصل (مكاثرة من ينسب) باسقاط الباء والسياق يقتضي اثباتها . اقول ولكن فعل كاثر انما يتعدى بنفسه لا بالباء . يقال كاثروهم فكثروهم اي غلبوهم بكثرة العدد . وليس المراد بالمكاثرة هذا المعني هنا انما المراد المعنى الآخر وهو كما في القاموس (كاثره الماء اذا أراد لنفسه منه كثيراً ليشرب منه) فالصاحب ابن عباد الذي كتب هذه العبارة كأنه يقول لصديقه : من يزهد في الاستكثار من التمتع بنضارة الربيع ؟ لا أحد . كذلك انا أريد لنفسي مكاثرة ربيع خلق صاحبي كما يكاثر العطشان غيره الماء عند الورود مريداً لنفسه الكثير منه ليروى . فقوله (مكاثرة من ينسب) من اضافة المصدر الى مفعوله الثاني . هذا اذا لم تكن مكاثرة محرفة عن كلمة أخرى .

ص٢٦٨ س٤ — (وحولي اعمال واشغال لا يسلم معها فكر . ولا يسلم بينهما طبع) لا يسلم ولا يسلم تكرار يتجنبه البلغاء عادةً فلعل صواب احدهما (لا يسلس) اي لا ينقاد ولا يطيع .

ص٢٧٠ س١٦ — (ولامجال للعتب عن هذه الاحوال) صوابه على هذه الاحوال

ص ٢٨٠ س ٦ — قوله في رسالة ابن زيدون (واظهر واضمر · وابتدأ واخبر · واستفهم وأهمل وقيد · وارسل واسند) الصواب اسقاط كلمة (واستفهم) فقد طالت بها السجعة عن تاليتها خلافاً لاصول السجع · وكأن هذه الكلمة هنا من رواية أُخرى جاءت في بعض النسخ وهي (واظهر واضمر · واستفهم واخبر) مكان (وابتدأ واخبر) ·

ص٢٨١ س٩ — (فكدمت غير مكدم ونفخت في غير فحم) صوابه كما في نسختنا (سرح العيون طبعة المليجي ١٣٢١ هـ) (فكدمت غير مكدم واستسمنت ذا ورم ونفخت في غير ضرم) وبذلك استقامت السجعة وصح المعنى · والا فان النفخ في الفحم لا يوري ناراً كالنفخ في الرماد بخلاف النفخ في الضرم فانه يزيده وقوداً واشتعالاً ·

ص٢٨٤ س٤ — (وهلا علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان · وشعرت ان ناديي المؤمن والكافر لا يتراءيان) ناديي بالدال تثنية نادي وهو مجتمع القوم والمعنى عليه صحيح ومع هذا فالصواب فيه (نارَيْ) تثنية نار بالراء لان ابن زيدون انما يريد التلميح الى الحديث الشريف · وهو كما في النهاية (قال صلى الله عليه وسلم انا بريءٌ من كل مسلم مع مشرك) قيل لمَ يارسول الله ؟ قال : (لاتتراءى ناراهما) اي يلزم المسلم ويجب عليه ان يباعد منزله عن منزل المشرك ولا ينزل بالموضع الذي اذا أُوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك اذا أُوقدها في منزله ولكنه ينزل مع المسلمين في دارهم · وانما كره مجاورة المشركين لانهم لاعهد لهم ولا امان وحثّ المسلمين على الهجرة · والترائي تفاعل من الرؤية ···· واسناد الترائي الى النار مجاز من قولهم داري تنظر الى دار فلان اي تقابلها اهـ ·

ص٢٨٥ س٥ — (وما أمّنك ان تكون وافد البراجم · او ترجع بصحيفة المتلمس · وافعل بك مافعله عقيل الخ) صواب (أفعل) (او افعل) كما هو في نسختي المذكورة لان (او) للتقسيم والمقام هنا يقتضيه ·

ص٢٨٦ س٧ — (ما كنت لأتخطى المسك الى الرماد · ولالأمتطي الثور دون الجواد) الأصوب فيه (بعد الجواد) اي ان تعرف ولادةُ ابن عبدون الثور بعد ان عاشرت والفت ابن زيدون الجواد · على ان الكاتب انما اراد التلميح الى قول المتنبي في بيته المشهور وهو :

(ومن ركب الثور بعد الجوا د انكر أظلافه والغبب)

يريد انه وجد الفرق بيّناً في معاشرة كافور الإخشيدي بعد ان عاشر سيف الدولة وكني عن هذه المعاشرة والخلطة بالركوب وقد عابوا عليه ذلك في مخاطبة الملوك ·

ص٢٨٧ س٦ — (وان كنت انما بلغت قعر تابوتك · وتجافيت لقميصك عن بعض قونك) · قوله (لقميصك) يجب اسقاطها لعدم الحاجة اليها ولظهور حشوها وهي غير موجودة في نسختي المليجية ·

ص٢٨٨ س١ — (وحلّاتك مارية بالقرطين · وقلدك عمرو بالصمصامة) صوابه (الصمصامة) من دون باء الجر لان فعل (قلّد) يتعدى بنفسه يقال قلدته السيف فتقلده ·

ص٣٠٨ س٦ — (فإما ان تبهرني بحجة فأنتصل عندك · وإما ان أني بحقيقة فاستديم ُخلتك · وإما ان تأزم على يأسك فأقطع حبلي منك) فسّر المصحح (الأزم) بالمواظبة والدأب وأبقى كلمة اليأس على حالها فلم يتعرض لها · وبذلك بقي الكلام او التقسيم غير مستقيم : لان الكاتب يعاتب صديقه فهو يقول له : إما ان تأتي ببرهان على خطإي فاعتذر اليك · وإما ان تعترف بحقيقة خطإك فأدوم على صداقتك · والحالة الثالثة — كما هو ظاهر العبارة — ان تواظب انت على يأسك · فأقطع حبل الود بيني وبينك · ومواظبته على اليأس لامعنى له وليس هو من جنس كلام البلغاء وصوابه (واما ان تأزم على فأسك) و(الأزم) العض وهذا هو معناه اللغوي و (الفأس) الحديدة المعترضة في حنك الفرس : قال في القاموس والاساس : (أزم الفرس على فأس اللجام اذا عض عليه) · ومنه قول يزيد بن الحكم من شعراء الحماسة :

(والخيل اجودها المنا هب عند كبّتها الأزوم)

يعني بكبتها حملة الحرب وازدحامها وقالوا في تفسير (الأزوم) هو العضوض على اللجام لفرط قوته وشدته · وقد كنّى بقوله هنا (وإما ان تأزم على فأسك) — عن لجاج صديقه وإصراره على ذنبه : فلا هو يحتج لنفسه · ولا هو يعترف بخطإه · بل بقي راكباً رأسه عاضاً على فأس لجامه كما يعض الفرس الشديد الشكيمة على شكيمته فهو لا يلاين لراكبه · ولا يرفق بصاحبه · « المغربي »

أمم تسود وأمم تبيد (١)

« أمم تسود وأمم تبيد » — سلسلة طويلة عديدة الحلقات من قبل التاريخ بقرون الى اليوم . ولكن هذه السلسلة كلما تقادمت عهودها كانت صغيرة الحلقات . و بالعكس كلما كانت أحدث عهداً كانت حلقاتها اكبر واطول .

فمنذ قبل التاريخ تعاقبت على دلتا النيل ودلتا دجلة والفرات وما بينهما من البلاد التي كانت مهد التمدن أمم عديدة قبل ان تأسست دول الفراعنة ودول بابل واشور ومادي وفارس وفينيقية والعرب . وليس عندنا من اخبار تلك الامم المنقرضة الا خيوط ضئيلة جداً غزلت من آثارها في العصرين الظراني والمعدني .

ولما كان الغرض من هذه المحاضرة ان نستخرج من حوادث المجتمع الانساني المسلسلة المتشعبة نواميس نشوء الامم واضمحلالها وانقراضها يكفينا ان نستشهد كلما دعا داع للاستشهاد بالامم التاريخية التي اتصلت الينا اخبارها .

اما ان الامم تنشأ وتنمو وتسود في التاريخ كله شواهد ناطقة عليه ونحن نشاهد اليوم كثيراً منها مشاهدة عيان . واما ان الامم تنقرض انقراضاً تاماً فعندنا خبر عاد وثمود والعرب البائدة في الجاهلية وقبلها وناهيك غيرها مما يرد ذكره هنا في سياق هذا المقال .

اما انقراض أمة او قبيل من الناس فله ثلاث كيفيات :

١ — الاولى ان تنقرض السلالة برمتها لحماً ودماً وهو اشنع كيفيات الانقراض وذلك بان تغزوها سلالة او سلالات اقوى منها جداً ، فاما ان تطردها من البيئات الخصبة الى البيئات القاحلة حيث تفني تدريجاً لقلة الرزق كما ان القبائل التي وفدت قبل التاريخ الى أعالي النيل عن طريق البحر الاحمر من جزيرة العرب طردت القبائل القديمة التي عمرت وادي النيل قبلها بعض العمران ، ثم دفعتها الى سلسلتي الجبال والصحراء وواحاتها ، وحلت محلها ، وانشأت دول الفراعنة ، فانقرضت تلك الامة القديمة ؛ وان

(١) محاضرة الاستاذ نقولا حداد التي القاها في بهو المجمع العلمي في ١٤ حزيران سنة ١٩٢٩ م .

كان قد بقي منها بقية فهم يقيمون في بعض الواحات القصية التي اكتشف بعضها حديثاً او ربما انسرب بعضهم الى اواسط افريقية حيث امتزجوا بزنوجها وهم اقرباؤهم في السلالة .

والا فاذا لم تكن وسيلة الانقراض الطرد على نحو ما تقدم تبيانه فهناك وسيلة الاسترقاق القاسي ومعاملة الغزاة للمغزوين كمعاملة البهائم فينقرض هؤلاء تدريجاً لسوء المعيشة فضلاً عن الشقاء في الخدمة .

مثل هذا الانقراض في المملكة الحيوانية كثير فان كثيراً من الحيوانات البائدة التي لم يبق لها اثر الا عظامها انقرضت على هذا النحو امام حيوانات اقوى منها بدناً وادهى حيلة او امام الانسان نفسه الذي اخذ محلها ولم يستطع ان يدجنها لخدمته . فالبلاد العامرة الحضرية الآن خالية من جميع الحيوانات الضارية والشرسة التي توجد اليوم في اواسط افريقية . كما انها خالية من القبائل المتوحشة التي طغت عليها قوى الحضارة فأفنتها .

٢ — هذه اولى الكيفيات التي تنقرض بها السلالة او القبيلة انقراضاً فعلياً اي لحماً ودماً . اما الكيفية الثانية فهي اندماج السلالة المغزوة بالسلالة الغازية واندغامها فيها بواسطة المزاوجة اذا كانت عادات هذه لا تحظر المزاوجة . ولهذه الكيفية الثانية اسلوبان:

الاول : ان يتخذ رجال الامة الغازية من نساء الامة المغزوة المستعبدة او المسبية المسترقة زوجات او خلائل فتقل مواليد العبيد لقلة نسائهم وبالتدريج ينقرضون . فيكون الاندماج من جهة النساء فقط . ولذلك يكون تلوث دم الامة الغازية بدم المغزوة قليلاً .

والثاني : ان يباح التزاوج الشرعي لكلا الفريقين الغازين والمغزوين اذا لم تكن العادات والتقاليد مانعة وكان الفريقان متعادلين في القوى الاجتماعية والادبية ودرجة الانحطاط او الارتقاء .

مثل هذا وذاك حدث كثيراً في الازمنة التاريخية والحديثة في القبائل الهمجية .

ومن أمثلة ذلك الآن هنود اميركا . فانهم ينقرضون تدريجاً على هذا النحو . ينقرضون حتى في جمهورية الولايات المتحدة الاميركية التي تعاملهم بكل رفق وشفقة . فقد هيأت لهم كل وسائل الرقي . فمن رقي منهم اندمج بالشعب الاميركي . وقد زادت

الحكومة على ذلك ان اعلنت انها تمنح كل رجل ابيض يتزوج هندية مزرعة ذات ١٦٠ فداناً كمكافأة له او كمهر للعريس ·

هذه الكيفية الثانية لانقراض السلالة تتصل بالكيفية الثالثة وهي اندماج الامم المختلطة بعضها ببعض وهي التي تجاوزت طور الهمجية واخذت تتمادى في الحضارة فزالت الفوارق بينها · فاختلطت في المعاملات وامتزجت بالتزاوج فاندمج بعضها ببعض · وانما بقي الاسم فيها للامة المتغلبة قوة او عدداً او رقياً او جميع هذه · فهذا الانقراض لا يعد انقراضاً حقيقياً بل هو تطور اجتماعي وسلالي ايضاً ·

فالكنعانيون والحثيون انقرضوا على هذا النحو اذ تدفعوا امام الاسرائيليين واندمجوا بالفينيقيين وغيرهم من الامم المجاورة · والفينيقيون بدورهم اندمجوا باجدادهم العرب ثم باليونان والرومان · والمصريون الاخيرون اندمجوا بالرومان والعرب ·

واما السلالات التي لم تبح لها تقاليدها التزاوج بغيرها بل بقيت محافظة على كيانها وسلامة سلالتها من الامتزاج ، فالتي استطاعت منها البقاء جددت كيانها ، كأمة اليهود الذين عادوا الى بلادهم بعد سبي بابل وجددوا مملكتهم ثم تبعثروا مرة أخرى · وعادوا اليوم يحاولون تجديد مملكتهم · واما التي لم تستطع البقاء فأخذت تتضاءل تدريجاً كأمة السامريين التي لم يبق منها الى اليوم الا ١٩٤ نفساً معظمهم في نابلس · وقد روى لي رئيس كهنتهم ان عندهم ١٩ شاباً لا عرائس لهم · وهم مضطرون ان يأخذوا لهم عرائس من نساء اليهود ولو من ضالتهن · فهم صائرون الى الانقراض الفعلي الا اذا شاء ربك ان يبقيهم اثراً حياً في متحف التاريخ الاجتماعي وكاهنهم يتمنى ذلك ·

هذه هي الكيفيات الثلاث لانقراض الامم · وما هي موضوع مقالتنا بالذات وانما الموضوع الرئيسي الذي نحوم حوله هو استخراج النواميس الاجتماعية لنشوء الامم وسؤددها ثم انقراضها · ولاجل ذلك نأتي على بيان تفاعل الامم في احوال اصطداماتها واحتكاكاتها في الغزوات والحروب والاستعمارات وعلى بيان نتائج هذا التفاعل ·

***

في حالة تفاعل الامم على نحو من الانحاء المتقدمة لا بد من وجود ثلاث حالات :

الاولى : ان تكون الامة الغالبة ارقى من الامم المغلوبة ·

الثانية : ان يكون العكس ، اي ان الامة المغلوبة ارقى من الغالبة ·
الثالثة : ان تكون الامتان متعادلتين في الرقي وربما كانتا متشابهتين فيه ·

١ — اما الحالة الاولى وهي ان تكون الغالبة ارقى من المغلوبة فهي الحالة الراجحة في التاريخ وهي طبيعية لان الرقي يغلب الانحطاط والعلم يغلب الجهل والحضارة تغلب البداوة · ونتيجة هذه الغلبة ان تكسب الامة الغالبة تمدنها للامة المغلوبة اذا كانت هذه في درجة من الرقي تقدرها على قبوله ·

فمن امثلة ذلك الامة الاشورية التي تعاظم امرها واستفحل سؤددها حتى غزت سوريا وفلسطين الى ان بلغت الى مصر · ومن العرب طغت الى اليونان وسائر شرقي البحر المتوسط · وقد عظم تمدنها في ذلك العهد وارتقت معارفها وصناعاتها · وبذلك نشرت تمدنها على جميع هذه الممالك ولا سيما على بلاد اليونان التي كان تمدنها حديث عهد فنضج بما اكتسبه من تمدن اشور وبابل وصار مصدراً لتمدن الامم الارية في الغرب · فالتمدن الذي نراه في الغرب الآن مسلسل من التمدن السامي ·

ثم جاءت اليونان في دورها وجعلت توسع نطاق نفوذها في الشرق وفي الغرب فردت صدى مدنية اشور وبابل بمزيج مدنيتها ومدنية اشور الى آسيا الصغرى ثم الى رومة وسائر البلاد اللاتينية ·

ثم جاءت نوبة رومة وفعلت فعل اليونان كما هو معلوم لكل من له اقل المام بالتاريخ ·

٢ — نأتي الآن الى الحالة الثانية وهي ان تكون الامة المغلوبة ارقى من الامة الغالبة · وهو اقل حدوثاً في التاريخ من الحالة الاولى لانه لا يكون الا في حالة ان الامة الغالبة المنحطة اكثر عدداً واشد بطشاً · وفي هذه الحالة يغلب ان تقتبس الامة الغالبة من تمدن الامة المغلوبة · ثم قد تفوقها ·

ومن امثلة ذلك الامة البابلية · فقد نشأت هذه الامة من مزيج سكان وادي الفرات الاصليين المسمين سمريين مجهولي الاصل ، ومن قوم من السلالة السامية هاجروا من بلاد العرب وكانوا بداة واقل تمدناً من السمريين ولكنهم كانوا اذكياء نشيطين · فاحتلوا البلاد وتعلموا لغة اهليها وصناعاتهم واقتبسوا حضاراتهم · وعلى تمادي الزمان

تفوقوا عليهم · ومن هذا المزيج نشأت الامة البابلية التي كان لها شأن في تاريخ الحضارة الاول ·

ثم طغت مملكة عيلام المتاخمة لبابل من جهة الشرق وغزتها مع انها احط منها · واستولت عليها عدة قرون · واكتسب العيلاميون كثيراً من تمدن البابليين المغلوبين لهم · ثم ما لبثت ان ظهرت دولة عربية في بابل تفوقت لعهد حمورابي فغلبت العيلاميين وضمت عيلام اليها فاتسعت المملكة البابلية ·

والغريب انه في تلك العصور وفي تلك البلاد كان الانحطاط دائماً يغلب الرقي · فبعد ان قضت بابل في عزها التمدني نحو ١٥٠٠ سنة من عهد حمورابي غزاها احد الملوك الاشوريين سنة ٧٢٨ ق·م مع ان اشور كانت منحطة زمناً طويلاً ومن ثم جعلت اشور الغالبة تقتبس من تمدن بابل المغلوبة حتى تفوقت عليها ·

ثم بعد ذلك جاءت دولة الفرس واجتاحت اشور وكلديا وهي احط منها ايضاً واستولت عليها · وما لبث الشعب الفارسي الآري الاصل ان اقتبس من المدنية الاشورية كثيراً · فترى مما تقدم ان الآريين اقتبسوا مدنية الاشوريين والبابليين السابقة من الشرق بواسطة الغلبة والفوز ومن الغرب بواسطة الانقلاب كما سبق القول ·

اظن ان هذه الامثلة كافية للاستشهاد على الحالة الثانية اي ان الامة الغالبة المنحطة تقتبس من مدنية الامة المغلوبة الراقية ·

٣ — بقي التمثيل للحالة الثالثة وهي ان تكون الامتان متعادلتين في الرقي · وهو امر كثير الحدوث في الحياة الامية الاجتماعية ونتيجته على الغالب : اولاً ان تقتبس كل من الامتين محاسن مدنية الاخرى · وثانياً ان الاصطدام بينهما قلما يكون عنيفاً بحيث يبقى لكل أمة كيانها اذا لم يتيسر اندغامها بالتزاوج والاندماج الشعبي ·

فمن امثلة ذلك ان سبي الاسرائيليين الى بابل لم يضرهم كثيراً · فقد نالوا حظوة في عيني بلشاصر اذ رأى من علومهم ورقيهم ومعارفهم ماجعله يحترمهم · ولا ريب ان البابليين اقتبسوا كثيراً من علوم الاسرائيليين وشرائعهم كما ان هؤلاء اقتبسوا من البابليين في كل احتكاك حدث بينهم · وفي شريعة موسى كثير من شريعة حمورابي ·

كذلك الفينيقيون الذين كانوا اقل الامم ميلاً للحروب وخوضاً لها كانوا يستعمرون

شواطئ البحر المتوسط استعماراً اقتصادياً اكثر منه سياسياً . فكانوا واسطة لنقل المدنية من موطن الى موطن ومن الشرق الى الغرب . كانوا ككريات الدم الحمراء التي تنقل أكسجين الهواء الى جميع خليات الجسم . كانوا يقتبسون ويقبسون ولذلك استطاعوا ان يحفظوا كيانهم زمناً طويلاً بقليل حروب . لان سلاح دفاعهم عن كيانهم كان مايحملونه من نبراس التمدن و يطوفون به في اقاصي العالم . فكان العالم حارساً لكيانهم لحاجته اليهم اولانتفاعه منهم . ومالنقضى كيانهم الا بعد ان اسسوا دولة قرطجنة واصبحت تنازع رومة السؤدد السياسي والاستعماري .

* * *

بعد استيفاء التمثيل على الحالات الثلاث للاصطدامات والاحتكاكات الأممية ماذا نستخرج من النواميس الاجتماعية لسؤدد الأمم وانقراضها ؟ .

لاريب انكم قد لاحظتم ياسادتي مما تقدم انه حيث توجد مدنية راقية فهناك كيان أمة ثابت . فالامة التي تعتصم بالتمدن الارقى تعيش وتعمر سواء أكان هذا التمدن في الاصل لها ام انها اقتبسته من غيرها غالبة او مغلوبة . فسر بقاء الامة هو اعتصامها بارقى حضارة موجودة في زمانها واقتباسها كل جديد نافع من الحضارة سواء أكانت حاكمة ام محكومة .

وهنا لا بد من تفسير معنى الحضارة او التمدن اوالمدنية اوالعمران فهي الفاظ مترادفة ومعناها مهما اختلفت يشتمل على ما يأتي :

١ = الاخلاق المتينة أساس العدل في المعاملات .

٢ = العلم الأقرب الى الحقائق اساس التهذيب والعمل .

٣ = العمل المنطبق على العلم وهو يطلق على الصناعات والفنون والمعاملات .

لفظ الحضارة او مارادفه يتضمن هذه القضايا الرئيسية . فاذا انتقضت احدى هذه القضايا تزعزعت الحضارة وتقوضت اركانها واشرفت أمتها على الانقراض انقراضاً كيانياً على الاقل . وكانت حضارة جميع الامم التي نمت واستعلت وسيطرت على غيرها شاملة جميع هذه الاركان ، كأمة الرومان التي لا تزال آثار نبوغها في الشرائع والعلوم والفنون والصناعات باقية الى اليوم . ولكن لما جعل الترف والبذخ يفسدان حضارتها

تزعزعت اركانها وسقطت بين ايدي البربر . وقد قال المؤرخون انه في ذلك الحين انطفأ مشعال المدنية القديمة وسادت على العالم ظلمة نحو خمسة قرون او اكثر .

والحقيقة غير ذلك فان مشعال التمدن الذي انتقل من المشرق الى المغرب عن يد البربر لم ينطفئ في ايدي البربر والا لباد تماماً . بل بقي مدة تحت المكيال الى ان رفعت اوربا المكيال عنه واستضاءت به .

ذلك لان هؤلاء البربر لم يكونوا همجاً متوحشين بل كانوا على شيء من التمدن الفطري فهم قبيلة الطوط من قبائل الجرمان . وكانت لهم آداب اجتماعية واخلاق جيدة . وانما لم يكن لهم من الفنون والعلوم والفلسفة والأدب ما كان للرومان . ولذلك كان لهم من الحرية والاستعداد للرقي ما خوّلهم قبول كثير من حضارة الرومان .

فلما فقد الرومان الاخلاق ، وهؤلاء الجرمان عندهم منها الكفاية بالرغم من تلقيبهم بالبربر ، سقطت الدولة الرومانية المحتضرة في يد اودوسر زعيم قبيلة جرمانية سنة ٤٧٦ .

وبعد ذلك شرع التمدن الروماني ينتشر في اوربا تدريجاً الى ان جعل نوره يشع ساطعاً في العصر المسمى بعهد النهضة او التجديد كما تعلمون .

ثم كان حظ البقاء لكل أمة ان تقتبس هذا التمدن وتشيد عليه . والا فالفناء يتهددها سلالة او كياناً . اي اما انها تتعرض للانقراض لحماً ودماً او للتفاني في أمة اخرى .

* * *

بقي امر آخر لا يستوفى الموضوع الا بالالتفات اليه وأعني به نتيجة هذا البحث القصوى وهو :

ان العصر الحالي غير الاعصر القديمة في الانظمة الدولية . والفرق بين ذاك وهذه هو في ضخامة الدول او صغرها . ففي الاعصر القديمة كانت بلاد كفلسطين تشمل عدة ممالك صغيرة مستقلة الدول يحارب بعضها بعضاً . ولا تضطر للتحالف الا اذا هددها خطر دولة بعيدة . وكذلك كانت بلاد مابين النهرين قبل ان نشأت بابل واشور ممالك صغيرة عديدة يغزو بعضها بعضاً . ومثلها كانت اليونان وروما . وانى كان يتيسر لدولة كأشور ان تبسط نفوذها على البلاد التي تفتحها . وذلك :

اولاً = لان وسائل المواصلات كانت ضعيفة وبطيئة جداً فلا تستطيع الدولة

المسيطرة ان ترسل قوة حربية لقمع الثورة قبل ان تستفحل الثورة وتطرح النير . حتى ان اخبار الثورة لم تكن تصل الى مركز الدولة قبل ان يكون الثوار قد نجحوا .

وثانياً = لان العُدد الحربية لم تكن شديدة الفتك كعُدد اليوم فكان المعوّل عليه في الحروب كثرة عدد الجيش . لذلك كان كدرلعومر البابلي يدوخ البلاد الاسيوية حتى حدود مصر ثم يتقاضى منها غرامة ويفرض عليها جزية ويمضي . وهيهات ان يستوفي الجزية .

وما تعاظمت الدول الى ان صارت امبراطوريات تحكم الممالك المفتوحة حكماً فعلياً مباشراً الا منذ استفحال الدولة الرومانية التي كانت تستعين بالملاحة الراقية على الاتصال باطراف ملكها .

واما في عصر النهضة الاخير الممتد الى اليوم فقد وفرت وسائل النقل السريع والمواصلات العاجلة وجاءت الكهربائية ونموها تقصر المسافات وتختزل اشهر المخابرات الى دقائق . وبذلك امكن ان تتضخم الدول والامبراطوريات تضخماً لا مثيل له . ثم ان عدد الحرب الجهنمية جعلت الحروب اشد هولاً واوسع ميادين حتى كادت الحرب العظمى تستغرق كل أمم الارض .

فمن ذلك نرى ان الفرق بين الدورين القديم والحديث عظيم جداً : ذاك صغير ضئيل ضعيف . وهذا ضخم عظيم قوي . فالدولة القوية تزداد قوة والضعيفة تزداد ضعفاً . وبالنتيجة فالامة الاحط حضارة تكون دائماً تحت خطر الامة الارقى حضارة . ذلك لان الحضارة مصدر القوة .

* * *

ولذلك لا يستبعد ان اقوى الامم وارقاهن حضارة تظل تستفحل حتى تبسط كل نفوذها على معظم الكرة الارضية حيث تنشر حضارتها وتصبغ جميع الامم بصبغة مدنيتها . او اذا لم يتسن لها ان تسيطر على العالم سيطرة مباشرة فتسيطر على اتحاد دولي يجمع كبريات الدول . وهذا الاتحاد الدولي يسيطر على العالم كله كجمعية الامم و يبتلعه .

ففي هذه الحال ماذا يكون مصير الامم الضعيفة والمنحطة ؟ وهنا النقطة الماسة في الموضوع يكون مصيرها على ثلاثة أشكال .

١ = الشكل الاول : ان الامة التي تستطيع ان تقبل الحضـارة السائدة تسلم من الانقراض السلالي لانها بقبولها هذه الحضـارة تستطيع ان تتسلح بنفس السلاح العلمي والاخلاقي والصناعي والاقتصـادي الذي تتسلح به الامة المتفوقـة المسيطرة · وبذلك لا يستطيع تيار الحضارة المستفحل ان يجرفها بل تظل قائمة فيه وسائرة معه · وبذلك يتسنى لها ان تكون متحدة مع الامة المسيطرة ومشاركة لها في السيطرة على العالم مع حفظ كيانها القومي ·

٢ = واما الشكل الثاني : فهو ان الامة التي لها قسط من الرقي والتمدن والتي تظل مصرة على قديمها محافظة على جمودها ولا تقبل الحضارة السائدة فتظل ضعيفـة السلاح الذي أشرنا اليـه اي السلاح العلمي والاخلاقي والاقتصـادي والصناعي · وبذلك لا تستطيع ان تصد التيار المتمدن الجارف بل ولا تستطيع ان تقف فيه لانه يقلبهـا ويسحقها و يفتت قوميتها فتضطر ان تندغم فيه اجزاءً وتتلاشى قومية · اي انهـا لا تفنى لحماً ودماً بل تفنى قوماً او أمة · يذوب افرادها في ذلك المحيط العظيم كما يذوب الملح في الماء ·

٣ = واما الشكل الثالث : فهو ان الامم المنحطة التي لا تستطيع ان تجاري الحضارة السائدة بوجه من الوجوه كالقبائل الهمجية المتوحشة فهذه تفنى فنـاءً فعلياً بالتدريج كما فنيت قبائل أخرى عديدة قبلها ·

و بالاجمال اقول ان الجماعات او الافراد الذين لا يستطيعون ان يقتبسوا الحضـارة الجديدة او الذين لا يريدون ان يقبلوها لاصرارهم على تقاليدهم التي لا تتفق معها فليس أمامهم الا الفنـاء التدريجي لانهم لا يستطيعون ان يزاحموا في معترك الارتزاق فينقرضون فقراً وشقاءً ·

* * *

بعد هذا البيان لا يتعذر عليكم يا سادتي ان تفهموا كيف يمكن ان يكون مصير الشرق أمام تيار حضارة الغرب · فمستقبله في يده ·

ولعل بعضنا يقول : اننا اخذنا نتحضر بحضارة الغربيين منذ قرن · فأزياؤهم اصبحت ازياءنا · وعندنا علومهم ومصنوعاتهم · عندنا تلغرافهم وتلفونهم ولاسلكيهم وسياراتهم

وقطارهم وفونوغرافهم وسينماتوغرافهم الخ . وما هو الذي عندهم وليس عندنا ؟ وقد قيل لي ان سيدة اوربية شهدت عرساً وطنياً فرأت فيه السيدات الوطنيات في ازياء اوربية حتى خيل لها انها في حفلة عرس باريسية .

فأقول : نعم . عندنا كل ما عندهم . ولكن ازياء نسائنا من مصانعهم لا من مصانعنا وسياراتنا من معملهم لا من معملنا وقطارنا وتلفوننا وتلغرافنا الخ كل ذلك من صنع ايديهم وليس من صنع ايدينا . حتى العلم الذي نتعلمه هو من بنات افكارهم وفوق ذلك نتعلمه بلغتهم . فنحن اذاً ، اقتبسنا ثمرة حضارتهم ولكننا لم نقتبس حضارتهم من اساساتها . فلا نعد إذاً متسلحين بمثل سلاحهم الا اذا كنا ننشئ الحضارة الجديدة عندنا من اساسها الى قبتها وحينئذ لا يستطيعون ان يستعمرونا بل نكون مثلهم معمرين نبادلهم بضاعتهم ببضاعتنا لا بضاعتهم باستقلالنا ولا سلعتهم بحريتنا .



أربد طبرية

غير إربد عجلون

جاء في كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار تأليف احمد بن يحيى بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م في باب بقية المزارات الاخرى ما يلي (١) :

« قبر ام موسى بن عمران . بقرية يقال لها إرْبِل من اعمال طبرية عن يمين الطريق وبها اربعة من اولاد يعقوب وهم دان وابساخور وذَبولون وكاذ » .

وقد علّق صديقنا العلامة الاستاذ احمد زكي باشا في التصويبات والتصحيحات التي ذيّل بها الكتاب بقوله : (٢)

« قرية إربل تعرف في ايامنا هذه باسم إربد بالدال المهملة في آخره وهي الآن من اعمال جبل عجلون التابع لحكومة شرق الأردن العربي وكانت في ايام الحكومة العثمانية عاصمة لقضاء عجلون وبها مسجد وسراي (بُنيت سنة ١٨٨٤) ومناخها طيب ولها مستشرف بديع على الصحراء يمتد شرقاً لغاية بادية الشام ويطل من الجنوب والجنوب الشرقي على جبل عجلون بغاباته التي يتكاثف بها شجر البلوط العتيق . وفي ساحتها حوض يملأه المطر فيستقي منه اهلها على طول السنة وهي قائمة على موقع المدينة القديمة اربلا وسكانها قبل الحرب العامة زهاء ١٢٠٠ نسمة وهم الآن اكثر عدداً .

وانما جعلها الأتراك « إربد » بالدال المهملة للتمييز بينها وبين مدينة إربل الشهيرة بارض الموصل » الى آخر ما هنالك .

وقد قرّظ الكتاب فيمن قرّظه من العلماء الاعلام صديقنا الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بتقريظ طويل تستأهله مادة الكتاب وقدّم الاستاذ زكي باشا الراسخة في العلوم والآداب فلما وصل الى اربل خالفه في رأيه بما ملخصه : (٣)

(١) مسالك الابصار في ممالك الامصار جزء ١ صفحة ٢١٨ . (٢) مسالك الابصار في ممالك الامصار جزء ١ صفحة ٦ من التصويبات والتصحيحات . (٣) مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٦ ص ١٨٩ .

ان لفظ اربد بالدال لم يتغير منذ الزمن الأطول واستند على ما اورده ياقوت في معجم البلدان في مادة أربد وزاد على هذا بقوله « ونظن ان ياقوت وهم في اربد فجعلها بفتح الالف وان كان تحريف العامة اليوم وقبل اليوم لا يعتدّ به قال وفي هذه القرية مات يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ واستشهد بقول الطبري انه مات باربد من ارض البلقا الى ان يقول وهذه اربد من جبل عجلون بعينها ثم نقل مادة « بيت أربئيل » من قاموس الكتاب المقدس وفيها انها تسمى اربد وانها شرقي بحيرة طبرية وختم كلامه بقوله « وقد أخطأ الاستاذ بول (Buhl) بقوله في المعلمة الاسلامية ان إربد او أربد هي ايضاً اربئيل القديمة وهي في البلقاء على ١٢ ميلاً غرباً من بيسان وهي التي هلك فيها الخليفة يزيد الثاني فانه ليس في تلك الجهات بهذا الاسم الا اربد هذه ولعله تسرب اليه الوهم من قول الطبري » والذي أراه ان الصديقين الصدوقين والعالمين العاملين قد وهما في تعيين موقع اربد الذي قصد اليه ابن فضل الله العمري وغيره من الجغرافيين فان اربد التي من عمل طبرية وعن يمين طريق مصر لا يمكن ان تكون اربد التي بالشرق العربي والتي تبعد عن طبرية مسيرة يوم كامل . وللوصول الى هذه النتيجة يجب علينا ان نستعرض اولاً أقوال الجغرافيين لنتبين بجلاء ووضوح موقع اربد الواردة في أقوالهم ثم ننتقل الى أقوال المؤرخين عن مكان وفاة الخليفة يزيد ونستخرج منها اين كانت واين يجب ان تكون ؟ وسنذكر هذه الأقوال بحسب سني وفيات المؤلفين لتسلسل الروايات ومعرفة الناقلين من المنقول عنهم فنبدأ بما قاله الرحالة ناصر خسرو القبادياني المروزي المتوفى بعد سنة ٤٣٤ هـ ١٠٤٢ م في رحلته المؤلفة باللغة الفارسية المسماة (سفرنامه) قال ناصر خسرو يصف طريقه من عكا الى طبرية : [1] ثم اتجهت صوب الجنوب فوصلت قرية حطين [2] وفي غربها وادٍ صغير تنبع منه من الصخر عين صافية وقد بني مقابل هذه العين

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي (م ٦ ص ٧١) . (٢) في تعريب مجلة المجمع عن الترجمة الافرنسية لشيفر المطبوعة سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨١ م قال عنها حاضرة في الترجمة الانكليزية للاسترانج المطبوعة سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م ذكرها باسم حظيرة او هذيرة وهي لاشك محرفة عن حطين كما يقتضيه رسم كلمة حطين وسياق كلام الرحالة ووصفه .

في الصخر مسجد في داخله غرفتان من الحجر و باب المسجد من الضيق بحيث ان الرجل يدخل اليه بصعوبة وفيه قبران متناوحان احدهما الى جانب الآخر وفي الاول شعيب وفي الثاني ابنته التي كانت امرأة موسى و يعنى سكان القرية بهذا المسجد و بهذه القبور كل العناية و يجعلون فيها مصابيح وفرشاً ·

وبعد ذلك اتجهت جهة أربل (اوأربد) وفي جهة القبلة جبل قام في سفحه اربعة قبور وهي قبور اربعة من اولاد يعقوب اخوة يوسف ولما انتقلنا من هذا المكان رأينا أكمة قامت في سفحها مغارة فيها قبر ام موسى وفيها صليت وتعبدت ·

وتوغلت في وادٍ رأيت في اقصاه بحيرة قامت مدينة طبرية على شاطئها الخ ·

وهذا هو اول رحالة مسلم اتصلت بنا اخبار رحلته في بلاد الشام · وقال علي بن ابي بكر بن علي الهروي المتوفى سنة ٦١١ هـ ١٢١٤ م في رحلته المسماة الاشارات الى معرفة الزيارات : (١)

ومن اعمال طبرية قرية يقال لها اربد (وقد تقرأ اربل) بها قبر ام موسى بن عمران عليه السلام عن يمين الطريق و بها اربعة من اولاد يعقوب وهم دان وايسارخان وز بدلون وكادو · (٢)

وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ١٢٢٨ م :

« أرْبَدُ : قرية بالأردن قرب طبرية عن يمين طريق المغرب بها قبر ام موسى بن عمران عليه السلام وقبور اربعة من اولاد يعقوب وهم دان وإيساجار وزَبولون وكاد فيما زعموا : (٣)

---

(١) من هذه الرحلة نسخة في دار الكتب المصرية ونسختان في الخزانة التيمورية لصاحبها صديقنا العلامة الجليل احمد تيمور باشا احداهما قديمة العهد والثانية حديثة ومن الزائد ان نقول ان هذه الرحلة لا تزال مخطوطة لم تمثّل بالطبع وهي من الكتب المفيدة في تعيين مواقع الزيارات في الشام ومصر والحجاز والعراق وسائر البلدان الاسلامية التي غشيها السائح الهروي · (٢) في النسخة الجديدة اربد وابناء يعقوب دان وايسارخاز وز يلون وكاد · (٣) معجم البلدان طبع ليبسك (ج ١ ص ١٨٤) ·

وجاء في كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الاماكن والبقاع لصفي الدين بن عبدالحق المتوفى سنة ٧٣٩ هـ ١٣٣٨ م وهو اختصار معجم البلدان المتقدم ذكره [١] :

أَرْبَدُ : قرية بالأردن قرب طبرية عن يمين طريق مصر بها قبر ام موسى بن عمران وقبر اربعة زعموا انهم من اولاد يعقوب » .

فيتضح معنا من هذه الأقوال ان اربد قرية بالقرب من طبرية على قارعة الطريق المؤدية الى مصر ولم تكن طريق دمشق الى مصر في تلك الايام الا من ناحية الأردن بدليل ما قاله عنها ثقات الجغرافيين نورد من ذلك ما قاله احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ ٨٩١ م قال [٢] :

« ومن مدينة دمشق الى جند الأردن اربع مراحل اولها جاسم [٣] من عمل دمشق وخسفين [٤] من عمل دمشق وفيق [٥] ذات العقبة المذكورة ومنها الى مدينة طبرية وهي مدينة الأردن .

واستكمل المراحل من جند الأردن الى جند فلسطين حتى بلغ بها مصر .

وما ذكره ابن خرداذبة المتوفى في أواسط القرن الثالث للهجرة واواخر التاسع للميلاد فقد قال ان الطريق :

---

(١) مراصد الاطلاع طبع ليدن (ج ١ ص ٤١) .

(٢) كتاب البلدان طبع ليدن سنة ١٨٦٠ م ص ١١٥ والكتاب ذاته طبع ليدن سنة ١٨٩١ م بذيل كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ٣٢٧ .

(٣) جاسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الاعظم الى طبرية ذكرها ياقوت الحموي في معجمه .

(٤) خسفين قرية من اعمال حوران بعد نوى في طريق مصر بين نوى والاردن وبينها وبين دمشق خمسة عشر فرسخاً ذكرها ياقوت .

(٥) أفيق بزيادة الالف قرية من حوران في طريق الغور في اول العقبة المعروفة بعقبة أفيق والعامة تقول فيق تنزل في هذه العقبة الى الغور وهو الأردن وهي عقبة طويلة نحو ميلين ذكرها ياقوت .

من دمشق الى الكسوة[١] اثنا عشر ميلاً ثم الى جاسم اربعة وعشرون ميلاً ثم الى فيق اربعة وعشرون ميلاً ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال[٢] .

وأتمها على هذا الوجه حتى انتهى بها الى مصر .

وما ذكره قدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ ٩٢٢ م فقد قال ان الطريق الدارج الى طبرية يأخذ من بعلبك[٣] الى عين الجر[٤] عشرون ميلاً ومن عين الجر الى القرعون[٥] وهو منزل في بطن الوادي خمسة عشر ميلاً ومن القرعون الى قرية يقال لها العيون تمضي الى كفرليلى[٦] عشرون ميلاً ومن كفرليلى الى طبرية خمسة عشر ميلاً .

ثم أردف ذلك بقوله وان اخذ الطريق الى جبال الأردن من دمشق فالطريق المستقيم من دمشق الى الكسوة الى آخر ما ذكره ابن خرداذبة وقد تقدم[٧] .

وما ذكره محمد بن البشاري المعروف بالمقدسي المتوفى بعد سنة ٣٧٥ هـ ٩٨٥ م :

---

(١) الكسوة على ما قاله ياقوت قرية هي اول منزلة تنزلها القوافل اذا خرجت من دمشق الى مصر وهي اليوم اول محطة للسكة الحجازية بين دمشق واذرعات على الكيلومتر ٢٥ . (٢) المسالك والممالك ص ٧٨ . (٣) يقول ياقوت بعلبك مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لانظير لها في الدنيا بينها وبين دمشق ثلاثة ايام وقيل اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل . قلنا ولاتزال آهلة يقصد اليها السياح من أقطار الارض لمشاهدة آثارها وهياكلها البديعة الصنع الغريبة الوضع وهي محطة للسكة الحديدية السورية على بعد ١٠٨ كيلومترات عن دمشق بين رياق وحلب . (٤) عين الجر موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق ذكره ياقوت في معجمه قلنا وهي اليوم القرية المعروفة بعنجر وكانت من قلاع الشام الحصينة قديماً . (٥) لا ذكر للقرعون في معاجم البلدان وانما ذكر ياقوت القرع وقال اسم لاودية في بادية الشام سميت بذلك لانها لاتنبت شيأً والقرعون اليوم قرية من قرى البقاع . (٦) لم يذكر في المعاجم العيون وكفرليلى وذكر ياقوت مرج عيون بسواحل الشام وقال العيون جمع عين الماء وهي في مواضع . قلنا ونظن انهما باقيتان الى الآن و يقطن الثانية مهاجرة الشركس على ماقيل لنا . (٧) نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة المطبوع بذيل المسالك والممالك ص ٢١٩ .

وتأخذ من دمشق الى الكسوة بريدين ثم الى جاسم مرحلة ثم الى أفيق مثلها ثم الى طبرية بريداً [١] .

فإذن كان من دمشق وما اليها الى مصر طريقان مطروقان احدهما يدعى بالدارج والآخر يعرف بالاعظم والى يوم الناس هذا تسمي العامة الاول المدراج الغربي والثاني المدراج الشرقي .

ولم يقل هؤلاء ولا غيرهم بطريق آخر يسلك فيه من دمشق الى مصر .

ولنرجع الى أقوال المؤرخين والرواة الذين ذكروا موضع وفاة الخليفة الأموي يزيد ابن عبد الملك بن مروان : قال ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ٨٩٥ م : [٢]

« توفي يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من ارض دمشق وكانت وفاته سنة ١٠٥ »

وقال محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ٩٢٢ م ما ملخصه :

وفي هذه السنة اي (١٠٥ هـ ٧٢٣ م) مات الخليفة يزيد بن عبد الملك يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان قال وقال الواقدي كانت وفاته ببلقاء من ارض دمشق وقال علي بن محمد مات باربد من ارض البلقاء [٣] .

وقال علي بن الحسين بن علي بن عبد الله المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ٩٥٧ م وتوفي يزيد بن عبد الملك باربد من ارض البلقاء من أعمال دمشق [٤] .

وقال علي بن الحسين المشهور بابي الفرج الاصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ٩٦٦ م : نزل اليزيد بيت رأس بالشام [٥] ومعه جاريته حبابة وخلا بهـا فأتيا بما يأكلان

---

(١) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٩٠ . (٢) الاخبار الطوال طبع مصر ص ٣٢٠ . (٣) تاريخ الامم والملوك ج٨ صفحة ١٧٨ . (٤) التنبيه والاشراف صفحة ٣٢٠ ومروج الذهب بهامش تاريخ الكامل لابن الاثير ج٧ صفحة ١٣٣ . (٥) بيت رأس قرية شرقي نهر الأردن كانت تنسب اليها الخمر الجيدة ولا تزال صهار يجها وآثارها ماثلة للعيان . وقد ذكرت في معجم ياقوت بانها قرية وقيل كورة بالاردن وفي كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعاً قال ناحية بالأردن وهي اليوم مأهولة واسمها باليونانية (Capitolias) .

فأكلت رمانة فشرقت بحبة منها فماتت فأقام لا يدفنها ثلاثاً حتى تغيرت وأنتنت وهو يشمها و يرشفها فعاتبه بعض ذوي قرابته واصدقائه وعابوا عليه عمله فأذن في غسلها ودفنها وعاش بعدها اياماً معدودات ومات فدفن الى جنبها (١) .

وقال علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م :

خرج اليزيد بحبابة جاريته الى ناحية الاردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها حتى انتنت فكُلّم في امرها حتى أذن في دفنها وعاد الى قصره كئيباً حزيناً وتوفي بعد ذلك وكان مرضه السل (٢)

وقال علي بن محمد بن عبد الرحمن الروحي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م وتوفي يزيد بحرّان (٣) .

وقال غريغور يوس بن هرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ١٢٨٦ م في صدد يزيد وجاريته حبابة :

« وخرجت معه الى ناحية الأردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فاستقبلتها بفيها فدخلت حلقها فشرقت ومرضت بها وماتت وتوفي يزيد بعدها بخمسة عشر يوماً ومات ودفن الى جانبها سنة خمس ومائة » (٤) .

وقال محمد بن عيسى المعروف بكمال الدين الدميري المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ١٤٠٥ م :

وتوفي يزيد بن عبد الملك باربل من ارض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال الى دمشق ودفن فيها وكان مرضه بالسل (٥) .

وقال حسين بن محمد الحسن الديار بكرلي المتوفى بعد سنة ٩٨٢ هـ ١٥٧٤ م .

ومات يزيد بسواد الاردن بمرض السل قاله هيثم بن عمرو (٦) .

---

(١) الاغاني ج ١٣ صفحة ١٥٧ . (٢) كامل التواريخ ج ٥ صفحة ٤٥ .

(٣) بلغة الظرفا في ذكرى تاريخ الخلفا صفحة ٢٥ . (٤) تاريخ مختصر الدول صفحة ١٩٩ . (٥) حياة الحيوان ج ١ صفحة ١٢٧ . (٦) تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ج ٢ صفحة ٣٥٥ .

وقال احمد بن سنان بن يوسف بن احمد القرماني المتوفى سنة ١٠١٩هـ ١٦١٠م .
وتوفي يزيد بن عبد الملك بمرض السل باربل من ارض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال الى دمشق وقيل مات باذرعات ودفن فيها [١] .

وقال محمد بن احمد بن عبدالغني بن علي الاسحاقي المتوفى بعد سنة ١٠٣٢هـ ١٦٢٢م :
وتوفي يزيد بنجران في شهر شعبان سنة خمس ومائة [٢] وكأنه نقل هذا عن الروحي فجعل حرّان نجران . وحرّان هذه قرية بغوطة دمشق ونجران من قرى حوران ذكرهما ياقوت في معجمه .

وأغرب ماورد فيهذا الباب هو قول ياقوت الحموي في مادة إِزْبِدْ بالزاي :
إِزْبِدْ : قرية من قرى دمشق بينها وبين اذرعات ثلاثة عشر ميلاً . فيها توفي يزيد بن عبد الملك بن مروان الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز في شعبان وقيل في رمضان سنة ١٠٥ واختلفوا في سبب مقامه هناك . فقال اهل الشام كان متوجهاً الى بيت المقدس فمرض هناك . وقال آخرون بل خرج للنزهة وانقصف كما ذكر في خبر وفاته الفظيع الشنيع فحُمل على أعناق الرجال الى دمشق فدفن في مقبرة الباب الصغير وباب الجابية وقيل بل دفن حيث مات [٣] . ولزيادة الايضاح وتحليل الحادثة وتعليلها نذكر ما رواه اهل الجغرافية عن الأردن والبلقاء والجولان التي نسبت اليها حادثة الوفاة .

فالأردن احد أجناد الشام الخمسة وهي كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا : والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان : والجولان قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران وقال بعضهم يقال للجبل حارث الجولان وقيل حارث قلة فيه .

هذا ما رُوي عنها باختصار أوردناه لنستعين به في اثبات نظريتنا في ان اربد عجلون هي غير اربد طبرية .

وبعد فان اربد الواردة في مسالك الابصار وغيره من الكتب هي اليوم قرية دارسة

---

(١) اخبار الدول وآثار الاول ص ١٤١ . (٢) اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول صفحة ٥٦ . (٣) معجم البلدان ج ١ صفحة ٢٣١ .

تحت قرية حطين بينها وبين مدينة طبرية و بحيرتها وبين قرية المجدل وهي على يمين القادم من دمشق الى مصر يعرفها العامة الى اليوم بهذا الاسم وفي جوارها قلعة متهدمة واليك ما قاله عنها الدكتور بوست من المعاصرين الاحياء في مادة بيت أرْبئيل « (بيت دار الله اومكمن الله سفرهوشع الاصحاح ١٠ : ١٤) اربلة وهي اربد الحالية شرقي بحر طبرية[1] » قلنا والصواب شماليها ٠

وقال القس اسعد منصور :

« بيت أربئيل أخربها شلمان ملك أشور وقتل كل سكانهـا (هو ١٠ : ١٤) هي الآن إربد خربة على نحو ثلاثة أميال شمالي طبرية وجنوبي قلعة ابن معن ذكرت في سفر المكابيين الأول باسم اربيلا (١ مكا ٩ : ٢) بقربها كهوف حصينة اتخذها اللصوص مكمناً لهم حتى شتت شملهم هيرودس الكبير[2] » ٠

وفي تعاليق صديقنا الاستاذ السيد نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل[3] :

« وقيل المجدل ترى وادي الحمام الى الغروب وعلى شفا جرف عالٍ قلعة اربد او اربيلا فيها مغارات يتصل بعضها ببعض بممرات وفي المغاور آبار و يصعب الصعود اليها من الشرق وهي محاطة بسور من الوراء ولقد ذكرت في التلمود بانها بين صفورية[4] وطبرية وذكرت في تاريخ يوسيفوس باسم مغاور اربيلا ولقد حار بها تيطس الروماني واقتادا هلها بحيلة الهزيمة الى السهل وهناك دار عليهم و كسرهم وبدد شملهم » .

على ان يذكر صـاحب الدليل المعروف باسمه يقول عند ذكره الطريق من طبرية الى تل حوم وصفد :

على بعد نصف ساعة من المجدل الى الغرب في السفح الجنوبي من وادي الحمـام خربة

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢٦٣ ٠ (٢) مرشد الطلاب الى جغرافية الكتاب صفحة ٢٢٢ ٠ (٣) تعاليق مخطوطة عن البلدان الفلسطينية ٠

(٤) صفورية في معجم البلدان كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية وهي اليوم قرية كبيرة على جانب الطريق بين الناصرة وطبرية وفيهـا كنيسة بنيت على أنقاض كنيسة قديمة وقد كانت كرسي أسقفية للنصارى ٠

اربد وهي اربيلا القديمة وهناك اطلال معبد يهودي وهو الذي ذكر في التلمود وهذا المعبد يقع على طرف الوادي [١] .

وهذه الأقوال تؤيد ماقاله الاستاذ بول (Buhl) في المعلمة الاسلامية ان اربد هي اربيل القديمة وانها في البلقاء على اثني عشر ميلاً غربياً من بيسان وهو القول الذي خطأه الاستاذ كردعلي كما سبق بيانه ولعل الاستاذ بول اخذ باقوال المؤرخين العرب الذين قالوا ان الخليفة يزيد قضى باربد من ارض البلقاء فجاراهم على تعريفهم والا فان اربد الحالية هي من الاردن والاردن يجاوره من ناحية البلقاء ومن أخرى الجولان فاذا التبس الامر على المؤرخين في تعيين الجند او الكورة فقال بعضهم ان اربد في البلقاء وقال الآخر انها في الاردن وقال غيره انها في الجولان فلا غضاضة عليهم في هذا . ومادمنا قد وصلنا الى اخبار التوراة التي استشهد بها من نقلنا عنهم ، فلنصحح اسماء ابناء يعقوب الاربعة الذين ذكرهم ابن فضل الله ومن تقدمه من الرحالة والجغرافيين وهم :

دان :	وكان يحده ملكه شرقاً يهوذا وبنيامين وجنوباً يهوذا وغرباً بحر الروم وشمالا افرايم							
يساكر :	"	"	" الأردن	"	منسى	" اشير	"	زبولون
زبولون :	"	"	" بحر الجليل والاردن	"	يساكر	" اشير	"	نفتالي
جاد :	"	"	" عمون والبادية	"	راوبين	" الاردن	"	منسي

وبحر الجليل هو بحيرة طبرية .

بقي علينا ان ننظر في المكان الذي توفي فيه الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بالاستدلال مما تقدم .

لم يذكر لنا الجغرافيون قرية اوبلدة باسم اربد في جهات البلقاء على ماحددوها هم انفسهم وكان حرياً بهم ان يذكروها اذا صح ان خليفة توفي فيها ولما ذكر ياقوت مكان هذه الوفاة قال عنها إِرْبِدْ بالزاي كما سبق بيانه فاذا لم يكن الخليفة قد توفي بازبد كما زعم ياقوت

(١) دليل بيدكر الطبعة الافرنسية لسنة ١٩١٢ صفحة ٢٥٢ (Baedeher page 252)

وعدها مجاورة لاذرعات[1] — ونظنه قد وهم في اعجام الراء فيكون صوابها اربد التي قرب عجلون لان هذه القرية تبعد اليوم ٢٥ كيلومتراً عن اذرعات — وكان التبس على ياقوت الامر بين إربد وأربد فيترجح معنا ان هذا المكان هو اربد المجاورة لطبرية للاعتبارات التالية :

(١) = ان إربد عجلون شديدة البرودة في موسم الشتاء فلا تصلح لان تكون متنزهاً اومنتجعاً للخليفة في شهر شعبان من سنة ١٠٥ ﻫ الموافق لشهر يناير — كانون الثاني — من سنة ٧٢٣ م لان البرد فيها وفي نواحي البلقاء يكون على أشدّه في ذلك الشهر .

(٢) = ان اول مؤرخ ذكر أربد هو الطبري كما تقدم بيانه وللماذكرها فتح الباء منها فقال ارَبد مما يؤيد رأينا في ان مكان وفاة الخليفة هو اربد التي بقرب طبرية فان التي بعجلون سواء أكانت بالزاي المنقوطة ام بالراء المهملة فهي بكسر الباء . .

(٣) = ان أربيل او أربد او إربل او إربد هذه قد عربهـا العرب عن اربيلا او اربئيل وهي واقعة على يمين الجادة السابلة من دمشق الى مصر ومن القرى التي لها شأن مذكور في التاريخ الاسرائيلي .

(٤) = سواء أكان الخليفة قد جاءها للنزهة ام للاستشفاء ام وصل اليها في طريقه الى بيت المقدس فانه يجب ان يأتيها من الطريق المسلوكة وهي محاذية لها .

(٥) = ان بحيرة طبرية وماجاورها من الاراضي البركانية معروفة بجفاف الهواء وهي تصلح لسكنى المصدورين فلا يستبعد ان يكون الاطباء قد اشاروا على الخليفة المريض بهبوطها عندما اشتد البرْد والبَرَد بدمشق . وطبرية معتدلة الهواء في فصل الشتاء لايكاد يشعر ساكنها بتأثير القرّ وهي شديدة الحرارة في الصيف لانخفاضها عن سطح البحر ٢٠٨ أمتار فهي من المشاتي الجميلة التي يوصي بها الاطباء لمثل هؤلاء المرضى والأعلاء .

(٦) = انـ اربد طبرية واقعة بجوار سهل جنيسارة ومطلة عليه من علٍ وهذا المرج الممتد على شاطيء البحيرة التي كانت تنسب اليـه قبلاً والذي يسميه العرب اليوم

---

(١) اذرعات من المدن الكبرى جاء ذكرها في أشعار القدماء وقد ذكرت في معجم ياقوت وهي تعرف اليوم بدرعا ولها محطة على الكيلومتر ١٦١ من حيفا الى دمشق في السكة الحديدية الحجازية ومنها تتفرع الى ناحية الحجاز .

بالغُوير تصغير الغور كان مضرب المثل في خصب التربة والجمع بين أشجار المناطق الحارة والباردة لاعتدال جوّه وجودة ثماره وبقوله الى حدّ ان اليهود كانوا يحرمون نقل تلك الثمار الى بيت المقدس في الأعياد الثلاثة التي كان يفرض عليهم فيها السعي الى زيارة الهيكل مشاة على الأقدام لئلا تلهيهم تلك الثمار الطيبة عن العبادة (هكذا يقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي) . وقد استولى المسلمون على هذه الارض وهي في حالة حسنة من الخصب والنموّ واستبحار العمران فلا غرابة في ان يكون الخليفة قد أقام في هذا المكان المرتفع للنزهة اوأقيم فيه ليتمتع بجفاف الهواء وجمال المنظر .

(٧) = قد يكون الخليفة قدم طبرية مستشفياً او في طريقه الى بيت المقدس — وهذا مانستبعده لاضطراب باله واختلال حاله بعد وفاة حبابة والعهدة على الرواة — فاشتدت عليه وطأة الداء وهو في طريقه وقضى نحبه فنقل الى اربد الى ان تتخذ التدابير اللازمة لاعلان موته وتولية وليّ عهده خوفاً من حدوث حادثة او وقوع واقعة .

(٨) = اذا سلمنا جدلاً ان الخليفة توفي باربد اوازبد عجلون في طريقه الى بيت المقدس وقد كانت اذذاك طريقاً أخرى تصل دمشق ببيت المقدس من ناحية اذرعات ومنها الى الزرقاء فعمان فبيت الرام فأريحا فبيت المقدس فما الذي أوصله الى اربد وهي تبعد زهاء ٣٥ كيلومتراً عن اذرعات ؟ .

هذا ماعنّ لنا ابداؤه في هذا الشأن وقد لا نكون من الاصابة على طرف الثمام ولكنها خطرات افكار مبنية على حقائق واعتبارات جديرة بالاهتمام .

عبد الله مخلص

عضو المجمع العلمي العربي

ابن خلدون

هو حكيم المؤرخين ، وعلم المحققين ، الفقيه الكاتب الشاعر المصنف القاضي ابوزيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون .

وبين عبدالرحمن وجده الاكبر خلدون آباء يقدرهم ابن خلدون نفسه بطريق الحدس بنحو عشرين أباً وان لم يحفظ من أسمائهم الا عشرة .

وينتهي نسبه الى وائل بن حُجر من أقيال حضرموت ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه ، ودعا له ولولده . ثم كان في شيعة معاوية ، ونزل خلدون من ولده (و يسمى خالد بن عثمان بن الخطاب) بلدة قرمونة من الاندلس في رهط من قومه . ثم انتقلوا الى اشبيلية ، وأسسوا فيها بيتهم الشهير ، وخدموا في الجند وقيادة الجيوش زمن بني أمية ، واستبد بحكمها بعضهم ، وبقوا يتعاورون أعمال الولاية والقيادة وخدمة السلطان زمن ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ، فلما ضعف شأن الموحدين بالاندلس ونشأت دولتا بني هود وبني الاحمر ولم تستطع هذه الدفاع عن اشبيلية واوشك الاسبان ان يستولوا عليها ، رحل عنها آل خلدون الى سبتة ، ثم انتقلوا الى افريقية في جوار اميرها ابي زكريا الحفصي ، فأسسوا بيتاً جديداً بتونس يعيش بخدمة الدولة الحفصية في الشؤون العسكرية والسياسية ، الى ان انصرف آخرهم محمد ابو المترجم عن وظائف السيف والحكم ، وانقطع الى طلب العلم والادب والرباط للعبادة ، فشب ابنه عبد الرحمن على مذهبه اولاً ، ثم نزع به عرق الوراثة فقضى في الحكم والسياسة اكثر عمره كما سنبينه .

ولد عبد الرحمن بن محمد مترجمنا في غرة رمضان سنة ٧٣٢ بتونس ونشأ بها ، فحفظ القرآن وتلقى على ابيه مبادئ العربية والأدب والفقه ، وحفظ المعلقات والحماسة وكثيراً من شعر القدماء والمحدثين ، ثم اخذ عن كثير من فحول علماء تونس ومن جلا اليها من علماء المغرب الاقصى والاندلس ، وقرأ القرآن بالروايات السبع ، ودرس النحو واصول الفقه وفروعه على مذهب مالك ، وقرأ الموطأ وصحيح مسلم ، واخذ المنطق وتعاليم الفلسفة والحكمة على طريقة ابن رشد وغيره ، والحساب وفن الكلام على مذهب الاشاعرة على العلامة الابلي الاندلسي .

واتفق ان دهم افريقية طاعون جارف مات فيه أبواه واكثر ذوي قرابته واشياخه فكسف باله ، ومال الى الاشتغال باعمال الدولة ، فتولى كتابة العلامة عن السلطان ابي اسحق الحفصي وهي (الحمدلله والشكرلله) تكتب بالخط الغليظ بين البسملة وما بعدها من مخاطبة او مرسوم ، وسنه لاتجاوز العشرين .

وكأنه استصغر هذا العمل فعزم على الخروج الى المغرب الأقصى لعله يجد عملاً أرفع ، فما كاد يخرج مع سلطانه في غزاة انهزم فيها حتى يمم المغرب قاصداً السلطان ابا عنان المريني بفاس فلقيه في طريقه امير بجاية (عنابة) الآن فصرفه عن قصده ، وأخذه معه الى بلده في خدمته ، الا ان شهرته بالفضل كانت قد بلغت ابا عنان ، فطلبه منه ، فأرسله اليه ، فضمه الى مجلسه العلمي الذي كان يعقده للعلماء والادباء يناظرهم فيه ويشاركهم في البحث ، وعهد اليه بمثل عمله في تونس الا ان ابن خلدون انتهز فرصة لقاء هؤلاء الأعلام فأكب على التحصيل والاخذ عنهم واستكمال علمه عليهم ، وازداد حظوة عند السلطان ونفوذ جاه ، فأوغر ذلك صدور المقربين للسلطان ، فاتهموه عنده ان صدقاً وان كذباً بمالأة امير بجاية على الدولة ، فقبض عليه وعلى امير بجاية وأودعها السجن . ثم أطلق الامير ، ولبث ابن خلدون في السجن نحواً من سنتين مات في نهايتهما السلطان ، فأخرجه الوزير الحسن بن عمر من السجن ، وقلده عمله القديم الا ان ابن خلدون لم يختر العافية وعيشة الهدوء بل سعى في تدبير الامر للامير ابي سالم المريني (وكان منفياً الى الاندلس) حتى سهل له الاستيلاء على ملك المغرب . وعندئذ أغدق عليه الأموال الطائلة وقلده كتابة السر وانشاء الرسائل السلطانية . فعدل عن مألوف كتاب المغرب من الكتابة المسجوعة البديعية ، وآثر المرسل من الكلام البليغ على طريقة القدماء . ثم ولاه خطة المظالم ، وهي وظيفة جليلة في الدولة ، فهاج ذلك حساده ووشوا به الى السلطان ، فتنكر له . وأحس ابن خلدون ذلك منه فتآمر هو والوزير عمر بن عبد الله على خلعه ، فخلع واستبد الوزير بالملك ، وكافأ ابن خلدون بعمل لم يعجبه ، فانقطع عن خدمة الديوان لفرط الدالة ونزق الشباب ، فجفاه الوزير ، فاستأذنه في الخروج ، فأذن له بعد مشقة .

وكان ابن خلدون قد ادى للسلطان محمد بن الاحمر ووزيره لسان الدين بن

الخطيب خدمات جليلة ايام نفيهما الى المغرب ، فأراد ان يستغل ما قدمه اليهما فكاتب اليهما بالقدوم الى الاندلس ، فلقيـاه بالحفاوة والكرامة ، واسفره ابن الاحمر الى ملك قشتالة الاسباني باشبيلية في مهمة ، فنجح فيها ، وحظي عندالسلطان واختص به في اكثر مجالسه ، فأحفظ ذلك صدر ابن الخطيب ، فشعر ابن خلدون بالامر ، وتخوف العاقبة . فاستأذن السلطان ان يرحل الى بجاية لخدمة اميرها فأذن له على كره ، فولاه امير بجاية اكبر عمل في دولتـه ، وهو منصب الحجابة ، ولكن سوء حظه حوّل مجرى الامور ، فخرج عليه ابن عمه وقتله ، فلم ير ابن خلدون بأساً في تسليم المدينة له جلباً لمودته ، ولكن مودته لم تدم ، فأوقع الوشاة بينهما .

فخرج من بجاية وعزم على الانقطاع عن السياسة والاشتغال بالعلم والتدريس بمدينة بسكرة ، الا ان ريح السياسة عصفت به ، فخرج الى فاس ، فلم يطب له فيها العيش وتنكر له المستبدون بها ، وظنوا انه يمالئ عليهم اعداءهم بالمغرب ، فاستأذنهم في الخروج الى الاندلس ، فعاد اليها ولاقاه ملكها محمد ، ووزيره ابن زمرك بعد مقتل ابن الخطيب غير ان أعداء ابن خلدون بالمغرب والاندلس أبلغوا ابن الاحمر انه كان يسعى في خلاص ابن الخطيب من نكبته ، ويحطب في حبله ، فطرده ابن الاحمر من بلاده ، فخرج منها بائساً لايدري اين يذهب ، حتى أذن له ملك تلمسان ابو حمو بدخولها مع انه كان حاقداً عليه لمظاهرته لاعدائه ، وبعد مدة كلفه الخروج الى بعض اهل البـدو لاستمالتهم الى طاعته فغير وجهة قصده ، ونزل ضيفاً على أولاد عريف في كنفهم ، وبت العزم على الانقطاع عن اعمال السياسة والشروع في التأليف ، فمكث بينهم اربع سنوات الف في خلالها معظم تاريخه العظيم ، وسود مسودة مقدمته في خمسة اشهر منها ، ثم احتاج الى مراجعة الكتب الكبيرة فاستأذن سلطان افريقية من الحفصيين بدخول تونس وطنه القـديم ، فأذن له فدخلها وألهاه مراجعة الكتب والاشتغال بالتـدريس والتأليف عن زيارات السلطان ومدحه في المواسم بالقصائد ، واشتهر امره في تونس واقبل عليه الطلاب والمستفيدون من كل فج ، وانصرفوا عن دروس العلماء بتونس الى درسه فوشوا الى السلطان بانه يتكبر عليه ولا يمدحه ، ومع ان ابن خلدون بعد ذلك مدحه وأهدى اليه ما أتم من تاريخه لم يصف له وجهه . فاستأذنه في الرحلة الى المشرق للحج واستكمال

تاريخه فأذن له ، فخرج الى مصر بطريق البحر فدخلها سنة ٧٨٤ في مبدإ حكم الملك الظاهر برقوق اول ملوك الشراكسة ، فجلس للتدريس بالجامع الازهر ، وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٦ فأظهر العدل والصراحة في أحكامه والضرب على ايدي المزورين والمتقاضين من الاعيان فعزّ ذلك على بعض الرؤساء وحسده العلماء والقضاة وسعوا به لدى السلطان ، وصادف ذلك غرق اهله وأولاده عند قدومهم اليه من المغرب ، فانقبضت نفسه عن الدنيا واستقال من القضاء وخرج الى الحج سنة ٧٩٧ . ثم رجع الى مصر وتولى التدريس حتى خرج مع كثير من علماء مصر في جيش السلطان فرج بن برقوق لمدافعة تيمورلنك عن الشام ولكن برقوق رجع بجيشه الى مصر دون ان يلاقي تيمولنك لفتنة حدثت في مصر وترك تيمور يحاصر دمشق . فخرج ابن خلدون منها في جماعة من العلماء الى سرادق تيمور ، وسأله تيمور عن حاله ، فخلبه بسحر بيانه ودهائه وأطلعه على ما كتبه في تاريخه من أعماله وفتوحه ، واستأذنه في الذهاب الى مصر فأذن له ولم يعد اليه . وبقي مشتغلاً بالتدريس والقضاء حتى مات بالقاهرة سنة ٨٠٨ﻫ وهو قاض للمرة السادسة . ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر ، وجهل قبره .

* * *

اخلاقه — يستنبط القارئ لسيرة ابن خلدون وتقلبه في البلاد والمناصب على اختلاف أنواعها أنه اشتمل على أخلاق من شأنها ألاّ تجعل حياة صاحبها هادئة هنيئة ، لا يكدر صفوها كيد الحساد ولا منافسة النظراء .

فأولها : علو الهمة والطموح الى افتراع كبار المناصب في الدول ، ولا جرم أن هذه المناصب في الدول قليلة العدد ، عزيزة المنال تقتضي أن ينفرد متوليها في الدولة بالمجد والجاه ، وهو ما يتطلع اليه كل عظيم النفس ذكي الفؤاد ، ويبذل في سبيل الوصول اليه النفس والنفيس ، ويترخص اليه كل عظيمة من سعاية وغش وخديعة وتزوير لاسقاط متوليها من منصبه وعظيم جاهه ليخلو له الجو او يقارب .

وثانيها : انه كان عظيم الثقة بنفسه الى مدى بعيد أغفله عن مراقبة خصومه ، والتنبه لمكايدهم ليحبط أعمالهم ، ويرد كيدهم عليهم ، فما كان يفطن لكيدهم الا وقد وقع في الشرك الذي نصبوه له ، وقلما نجا منه . وربما حمله ذلك على احتقار من هم دونه وقلة المجاملة لنظرائه والدهان لرؤسائه فيمل مقامه بينهم ، ويتربصون به الدوائر وربما جره

ذلك ايضاً الى الاعجاب بنفسه والدالة على رؤسائه والتحدث عن أعماله وآرائه بما لا يروق المنافسين له .

وثالثها : قلة الوفاء لمن جذبوا بضبعه الى المعالي من الملوك والامراء والوزراء والرؤساء الذين خدمهم في دولتهم ، وسمحت له نفسه بمظاهرة اعدائهم عليهم عندما يتوقع ركود ريحهم ، وانتقاض ملكهم : ايثاراً للسلامة ، وتوقياً للمكروه الذي قلما سلم منه ، وحرصاً على مرتبة أسمى وجاه أرفع ، وذلك الخلق متولد من التطرف في الخلق الاول وهو علو الهمة .

ورابعها : انه كان كثير الملل والسآمة كثير التبرم بالاكفاء والنظراء وربما كان ذلك ناشئاً عن الخلق الاول ايضاً .

***

ذكاؤه ونفوذ خاطره في سنن العمران والاجتماع البشري = كان ابن خلدون احد نوابغ العالم الذين عاشوا افذاذاً في عصور مظلمة لم يعضدهم فيها مشاكل ، او نعرف قدرهم أمتهم ، فكانت حياتهم بين الامة التي عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة ، فقد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره الى الاهتداء الى كثير من علل الحوادث التي تنتاب الاجتماع البشري وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه حتى وقرت في نفسه بصور قوانين عامة وأقيسة مطردة سال بها قلمه دون ان يفطن لها كثير من اهل قرنه ، ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع الا بعد انقضاء عدة قرون . وهذا الذكاء الفائق في ابن خلدون مراتبَ الذكاء المعتاد فيمن نشأ على نظام التربية والتعليم المتبع في عصره هو الذي جعل تفكيره يتسامى الى أفق أعلى من أفق التفكير عند اهل عصره ، فبعدت الشقة بينه وبينهم فزالت المؤالفة والتراضي وحسن الاغتباط بالصحبة ، والى هذا يرجع شقاء كثير من أذكياء العالم على ايدي القرن الذين نشئوا بين ظهرانيهم ، فلم تثمر أعمالهم في عصرهم ، وقد يحفظها التاريخ لمن يفطن لها ممن يأتي بعدهم ، ويقتبسون من نورها في حياتهم وآرائهم ، كما فطن هو بثاقب نظره الى آراء كثير من فحول التفكير الذين سبقوه بقرون وباحوا بما جاشت به نفوسهم من قوانين وحقائق لم يشعر بها اهل زمانهم ، فمخضها واستخرج منها زبدة آراء لم يعرفها العلماء الا بعد تهذيب

العلوم وترقية شؤون التعليم والتثقيف ، فكان وجوده سابقاً بذكائه المتوقد للعصر الذي يلائم تفكيره بنحو اربعة قرون .

وقد يخطر بالبال المجرد من التأمل ان ابن خلدون لو لم ينهمك في أعمال السياسة ويتول الكثير من مناصب الدولة والرياسة وكان قد توفر على التعمق في البحث والتمحيص لكان للناس من ثمرة ذكائه أضعاف ما اثر عنه ، ولكن لا يعزب عن المتأمل ان ما وصل اليه ذهنه من القوانين والآراء التي قررها في مقدمته انما كان اكثرها بسبب احتكاكه بالناس حاكماً ورئيساً ومرؤوساً وطالباً ومطلوباً وملابساً لاحوال الملوك والمستبدين على اختلاف نزعاتهم وتباين أممهم ونحلهم وأنسابهم وبلادهم .

* * *

علمه وتصرفه — قدمنا ان ابن خلدون درس في شبابه من علوم القرآن والفقه واصوله والكلام والعربية والآداب وتعاليم الفلسفة والتصوف ما اعتاد كثير من المحصلين من اهل زمانه ان يجودوه ، بل ربما قل عنهم فيه ، لانتظامه في سلك الاعمال السلطانية قبل ان يطر شاربه ، وانما العبرة في ابن خلدون وأضرابه من أذكياء العالم في امرين : الاول الانتفاع بالقليل من المعرفة بحسن تصريفه في كثير من وجوه العلم ، والثاني دوام الاستزادة من المعرفة كلما سنحت الفرصة وتهيأ لهم الفراغ ، فيكونون على اتصال دائم بالعلم فلا تخمد جذوة ملكتهم فيه ، ويغزر علمهم ، ويتسع اطلاعهم اذا بارك الله في عمرهم وانفسح اجلهم ، فقد وجدناه يقوم بوظيفة خطية هي كتابة العلامة فيجودها ، ويشتغل بصناعة كتابة من كتابة السر وانشاء الرسائل فيجدد من محاسنها ، وينتدب للسفارات وتأديب البغاة واستمالة العصاة فينجح فيها ، ويتولى الحجابة فيرفه من شأنها ، وتسند اليه خطة المظالم والقضاء (وهما ثمرة الفقه والاضطلاع بالعرف) فلا يتحرف عن جادتها ، ويصنف في التاريخ والأدب والفلسفة فيعد من المبتكرين والأئمة الواضعين فيها والرافعين من قواعد هيكلها ، ويجلس لتدريس الفقه والاصول والكلام فتنثال عليه الطلاب من كل حدب ، ويحل له ما تعقد من صناعة التربية والتعليم ، ويصبح قدوة فيهما . وبذلك يسقط قول الامام الجليل ابن عرفة المالكي في ابن خلدون عندما قدم مصر الى الحج

« كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب ، فلما بلغنا ان ابن خلدون ولي القضاء عدنا بالضد من ذلك » على انه كان من المنافسين له في المغرب ·

* * *

ابن خلدون باعتباره كاتباً مترسلاً = نشأ ابن خلدون في زمان يسلك كتاب الرسائل السلطانية فيه طريق الكتابة المسجوعة المحلاة بانواع البديع على طريقة ابن العميد وكانت طريقة القاضي الفاضل التي أساسها التورية والتوجيه والجناس قد دب دبيبها الى المغرب منذ حين حتى لابست اقلام كثير من بلغائه كابن الخطيب ، وهي الطريقة التي سماها ابن خلدون بالشعر المنثور ، فشب ابن خلدون في كتابته على هذه الطريقة وكتب بها ردحاً من الزمن حتى ظهر له فسادها في الرسائل السلطانية ، وعدل عنها الى طريقة بلغاء الاوائل كابن المقفع واحمد بن يوسف والجاحظ ، فأحيا بذلك في عصره الكتابة المرسلة الفطرية الخالية من السجع وتكلف البديع في عصر بلغ فيه ذلك غايته ، قال عن نفسه عندما كتب للسلطان ابي سالم المريني :

« واستعملني في كتابة سره والترسل عنه والانشاء لمخاطباته ، وكان اكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون ان يشاركني احد ممن ينتحل الكتابة في الاسجاع لضعف انتحالها وخفاء المعاني فيها على اكثر الناس بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ وكان مستغرباً عند من هم من اهل هذه الصناعة »

وقد عرفت رأيه مفصلاً في استهجان هذا الشعر المنثور والنثر المسجوع والنعي على مستعمليه في كتابة الرسائل مما قدمناه لك عند الكلام في كتابة الرسائل زمن المماليك منقولاً من مقدمته فراجعه ثمة وتأمل تعليله لذلك تعرف وجه انصرافه عن هذا النوع من الكتابة في الرسائل السلطانية والرجوع الى طريقة القدماء من البلغاء نعم ان ابن خلدون بقي الى آخر حياته تصدر عنه بعض المكاتبات لاخوانه المؤثرين طريقة البديع كابن الخطيب مجاملة لهم وجرياً معهم في ميدانهم الا انه راعي فيها القصد ، ولم يتكلف البديع ، وخاصة التورية والتوجيه كما تكلفها ابن الخطيب وغيره ممن فتنوا بطريقة المشارقة حتى حاكوهم فيها بتأليف كتب العلم والتاريخ مسجوعة ، كالفتح ابن خاقان في قلائد العقيان والمطمحين وكابن بسام في الذخيرة وكابن الخطيب في الاحاطة وكتاب

الحب الشريف وغيرهما ، فربأ ابن خلدون بنفسه ونزع نير التقليد من كتابة الرسائل ومع المام ابن خلدون بكثير من العلوم ذات القواعد والاصطلاحات من نقلية وعقلية لم تظهر على رسائله السلطانية والاخوانية مسحة الكتابة العلميـة وأساليب العلماء كما ظهرت في ابن الخطيب .

* * *

مؤلفات ابن خلدون وكتابته فيها = ذكر لسان الدين ابن الخطيب بعض مؤلفات ابن خلدون قبل ان يؤلف تاريخه العظيم ومقدمته النفيسة فقال (شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه وتفنن ادراكه وغزارة حفظه ولخص كثيراً من كتب ابن رشد وعلق للسلطان « محمد بن الاحمر » أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ولخص محصل الامام الفخر الرازي [1] والف كتاباً في الحساب وشرع في هذه الايام في شرح الرجز الصادر عني في اصول الفقه بشيء لا غاية بعده في الكمال) وقال صاحب نفح الطيب بعد نقل هذا الكلام من الاحاطة هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ امره واوسطه فكيف لو رأى تاريخه الكبير .

ونحن وان لم يعثرنا الزمان على جميع مؤلفاته لنتعرف معالم كتابته في مختلف العلوم لنستطيع قياس الغائب على المشاهد من كتابة مقدمته وتاريخه نرجح ان كتابته في الاصول والكلام والفلسفة لا تبعد كثيراً عن الفصول التي كتبها في المباحث الكلامية والفقهية والفلسفية من مقدمته الجليلة وفي بعض مواضيع من تاريخه . وعلى ذلك نبدأ بالكلام على المقدمة والتاريخ فنقول :

* * *

مقدمة ابن خلدون = نتكلم على المقدمة من حيث عبارتها واثرها في اقلام المنشئين ومصادرها والآراء التي انفرد بها مؤلفها فيها واثرها في ايجاد مؤلفات من نظائرها .

(عبارتها) : أما كتابتها فيمكننا وصفها بما يأتي :

---

(١) هو محصل افكار المتقدمين والمتأخرين في علم الكلام على طريقة الاشاعرة وهو كتاب عظيم القدر .

أولا — خلوها من السجع الا في النادر كخطبة الكتاب ٠

ثانيًا — جزالتها في الفاظها و بلاغتها في أكثر أساليبها ، و يظهر ذلك في كثير من فصول مقدمته لا في جميعها لجاءت كتابته في هذه الفصول بمنزلة من البلاغة لا تقل عن كتابة فحول القرن الثالث ٠ وقد يسفّ في كتابته في بعض الفصول ، فيغلب عليها التعقيد وأساليب المناطقة ، فيعتاص فهمها على من لم يرتض ذهنه على فهم عبارات المتكلمين والمتفلسفة ٠

ثالثًا — الاسهاب البالغ حد التكرار الممل في بعض المواضع والايجاز المخل المفضي الى الاستغلاق والغموض في آخر و ينشأ كلاهما في احدى خصلتين : اما من اضطراب أحوال النفس في انبساط وانقباض ، واما من اضطلاع وملاءة ببعض المسائل والدعاوي دون بعض ٠ ولا يبرأ التأليف من معرة هاتين الخصلتين الا بمعاودة المؤلف النظر اليه في أوقات صفائه واستجمام خاطره والانحاء عليه بالتثقيف والتهذيب ومراجعة الاشباه والنظائر من الكتب الباحثة في مثل موضوعه ، وكل ذلك لم يكن بمتيسر الوقوع لابن خلدون فيما لدينا من كتبه ، اذ من المعلوم ان المقدمة التي هي وليدة كد خاطر وقدح ذهن واستقصاء في بحث كتبت في نحو خمسة أشهر ، وهذا التاريخ كتب في أقل من اربع سنين ، وكأن المؤلف لم تهيء له نكبات الايام ولا مكايد الخصوم عيشاً رغداً ولا بالاً صالحاً لمعاودة كل ما كتب منها للتمحيص والتهذيب ٠ وغاية ما علمناه من ذلك انه راجع المقدمة فقرأ نسخة كتبت في مصر فنقح من بعض عباراتها ، وأعاد كتابة بعض فصولها من جديد ، ولكن ذلك قد كان بعد ان سارت بها الركبان وحملت الى اقاصي البلدان ٠ وقد اطلعت على صورة شمسية نقلها العلامة المفضال احمد زكي باشا عن النسخة الخطية التي نقحها المؤلف بخطه والمودعة احدى دور كتب القسطنطينية ، فوجدت ان هذا التنقيح لم يعدُها ، و بقي مدفوناً معها في هذه القبور قبور الكتب اكثر من خمسة قرون ، و يظهر ان المؤلف نقحها في آخر حياته ، وأغفل امرها الى ان حملها السلطان سليم مع ما حمل من الكتب والذخائر والعتاد الى حاضرة ملكه ، فاحتجبت عن قراء العربية دهراً طويلاً ، وطبعت مراراً في كثير من الممالك عن الاصل الذي لم ينقح ٠

اما التاريخ فيظهر ان المؤلف لم ينقحه بل يظهر ان ما طبع منه في مصر نسخة منقولة

عن مسودة لا عن مبيضة لكثرة السقط والبياض فيه .

رابعاً — استعمال المؤلف فيها بعض كلمات لم ترد في معجمات اللغة او صرفت على غير مجاز عن معناها ، واستعماله أساليب تأباها قواعد العربية في نثر الكلام ، او لا يمكن تصحيحها الا بتأول لا داعي اليه ، فيستعمل المخال اسم آلة لرفع الأجسام ، ولا اصل لاشتقاقها في اللغة ، وكذلك الهندام وهو معرب ومعناه غير ذلك ، ويستعمل الجيل بمعنى القرن واللدات ، والهرج بمعنى الاضطراب ، ويستعمل انتشوا بمعنى نشطوا في الامر ولا أصل له في اللغة ، و يدخل الواو في خبر لا بدّ فيقول (لا بدّ وان) ، و يدخل باء التعدية في فعل استبدل على غير المتروك ، و يعدى تعود بعلى ، و يجعل الخبر او جواب الشرط استثناء اواستدراكاً فيقول (فانه وان كان كذا الا انه او لكنه) ، و يؤنث الخلق ، ويستعمل التلميذ اسم جمع ، و يجمع العصبية على عصائب وغير ذلك كثير في كلامه . وقد تعدته هذه الاغلاط الى قراء مقدمته المحاكين لانشائه في اول عصرنا الحاضر ، ومنهم انتقلت الى كتاب الجرائد وقرائها . و بالرغم من هذه الاغلاط لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها في وقت أظهر منه في اول العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية في تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الادبية العربية والسياسية من كتاب العربية في مصر والشام وتونس وخاصة من الف منهم في مثل موضوعاته اوكتب في الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب ، ولانه أرحب أسلوب علمي أدبي للنقلة والمترجمين عن اللغات الاجنبية المحافظين على اصل المعنى ، فهي الاستاذ الاكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الاخيرة ، وربما انضم اليها في ذلك كتاب كليلة ودمنة .

ولم يعد للمقدمة في الثلاثين سنة الأخيرة من هذا العصر ما كان لها من عظم الشأن والقدوة الحسنة في اوائله لكثرة ما طبع من الكتب العظيمة وسهولة اقتنائها على الغني والفقير من اهل الادب لرخص ثمنها ، فشارك المقدمة في تثقيف الكتابة الادبية والتأليفية كتاب الاغاني وكتب الجاحظ وتاريخ الطبري وغيرها من الكتب البليغة الممتعة . على ان كثيراً ممن يعيشون في عصرنا يكتبون في مؤلفاتهم وجرائدهم وقد

استخلصوا زبدة هذه الأساليب ما لا يقل فصاحة وبلاغة عن ابن خلدون او يزيد مع صحة عبارة وانتقاء لفظ ٠

* * *

(مصادرها) : واما مصادرها فمن الغمط لفضل ابن خلدون والجحود لمواهبه وعبقريته ان نقول بان اكثر مباحثه فيها منقول من كتب المتقدمين فللرجل فيها فصول ونظريات هو ابو عذرتها ومبتكرها وخاصة ما كان متعلقاً بالسياسة والاجتماع والعمران والاقتصاد حتى لا يعدّ مبالغاً من يقول انه واضع علمي العمران والاجتماع ، وانه من اسبق من تكلم في الاقتصاد السياسي ، وان ما كتبه في مسائل هذه العلوم يربو على نصف المقدمة ٠ ولكن من المسلم ان الفصل الاول من العمران البشري اخذه من أمثال رسائل اخوان الصفا وكتب الجغرافيين من العرب الناقلين لجغرافية بطليموس ، واخذ مباحث ادراك البشر للغيب بالفطرة او الرياضة من كتب التصوف والكلام والفلسفة دون ان يكون له كبير رأي فيهما ، واخذ مباحث الخلافة والامامة ومذاهب الشيعة والخوارج فيها من كتب الكلام وكتب الملل والنحل للشهرستاني وابن حزم ، وكتاب الفرق بين الفرق والكامل للمبرد والعقد الفريد وغيرها ٠ واخذ مباحث تاريخ العلوم والصناعات من مثل كتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب طبقات الامم لصاعد الاندلسي ، ومن مقدمات الكتب المطولة في التفسير والحديث ، ومن كتب التاريخ لطبقات الرجال في كل فن ، واخذ مباحث السحر والطلسمات والسيمياء والكيمياء من كتب مسلمة المجريطي والكتب المنسوبة لجابر بن حيان ورسالة ابن بشرون ٠ واخذ التنجيم وأسرار الحروف والزايرجة من كتب البوني وابن عربي والسبتي صاحب اللامية وكلهم مغاربة ٠

واخذ الكلام في مقامات الصوفية من مثل مقامات المحبة والمجاهدة والتوجه والفناء وفناء الفناء من كتب الصوفية من أمثال ابن عربي الاندلسي وغيره ٠ واخذ الكلام في خطط سياسة الدولة والاحكام السلطانية والجباية من أمثال كتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي وكتاب الاحكام السلطانية للماوردي وسراج الملوك للطرطوشي وكتابي مروج الذهب والتنبيه والإشراف للمسعودي وكتاب الخراج لابي يوسف ،

واخذ كثيراً من مباحث إبطال الفلسفة والتنجيم والكيمياء من كتاب الغزالي وغيرها .

وما بقي من مباحث المقدمة وهو كثير خطير فهو من أبكار أفكاره أوصله اليه كد خاطره وتعمقه في فهم العلوم والتنبه لأسرار الكون والخليقة وطبائع البشر في بداوتهم وحضارتهم ونشاطهم وخمولهم هذا الى كثرة تجاربه ومزاولته العمل في ممالك شتى مما أوضح له ارتباط اسباب نشوء الدول وسقوطها بمسبباتها علاوة على حسن الترتيب والتقسيم والنقد والتعليل لما ليس من مبتكراته وما كل ذكي الفؤاد بقادر على النقد والاستفادة مما يشاهد ويحس في البيئة التي يحلها ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

« للبحث صلة »

عضو المجمع العلمي
احمد الاسكندري



آراء وافكار

استبدال الحروف العربية

« بالحروف اللاتينية »

منذ استبدل الاتراك الحروف العربية في كتابتهم بالحروف اللاتينيـة تنبهت الافكار في الشرق الادنى عامة الى وجوب اصلاح الحروف العربيـة ايضاً وظهرت اقتراحات عدة بهذا الموضوع وفي جملتها انتهاج الخطة التي قبلها الاتراك وابدال الحروف العربية باللاتينية وآخر ما اطالعناه مقال نشر في المقطم بتاريخ ١٠ تموز سنة ١٩٢٩ من ان عالماً مستشرقاً هولندياً اقترح على الحكومة المصرية كتابة العربيـة بالحروف اللاتينية وهذا هو المقال المذكور :

مهما بلغ من نزعة التجديد ونشاط المجددين عندنا فالرجاء ان لا يسمح لهم بان يحاولوا احلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربيـة فهذا مشروع لا يقابله الناطقون بالضاد بالارتياح ولا يشير به المستشرقون الاوربيون انفسهم ولو ان بعضاً منهم رأى هذا الرأي من اكثر من ربع قرن وعولجت القضية باسهاب كثير في المقتطف فقد روى وكيلنا الاسكندري الآن ان عالماً من علماء هولندا أرسل يقترح على وزارة المعارف عندنا ابدال الحروف العربية بحروف لاتينية وحذف سبعة حروف متشابهة من الابجدية ·

اما اذا عدنا الى اختبار سوانا فان مشروع تركيا أوقع بلادها في فوضى علمية وادبية واجتماعية لم ير لها مثيل والاخبار التي ترد من الاستانة تدل على ان هذا التبديل أدى الى اشكال عظيم كانت الصحافة في مقدمة ضحاياه ·

لقد تفرنجت الشعوب العربية في اشياء شتى بعضها حسن والبعض الآخر قبيح ولكن هل معنى هذا ان يعم التفرنج كل شيء ·

والظاهر ان الذين يشيرون باصلاحات جوهرية كهذه في اللغة العربية ينسون ان الترك شعب واحد في بلاد واحدة وان العرب شعوب في بلدان شتى فالذي يستقر عليه قرار واحد منها لا يسهل تطبيقه على سواه من هذه الشعوب وهي منتشرة من الاوقيانوس

الا تلانتيكي الى حدود فارس ومن جبال طورس والبحر المتوسط الى خط الاستواء ·

ان اللغة العربية في حاجة الى اصلاحات شتى يستطيع ان يعالجها مجمع لغوي عام كالذي فكرت وزارة المعارف المصرية في انشائه ولم ينشأ · واما القضاء على تاريخ لغة عظيمة عريقة في القدم وحافلة بالآثار النفيسة بابدال حروفها بحروف أخرى فاقتراح لا يخلو من الفكاهة ولكنه يجب ان لا يتجاوز هذا الحد ولا ان يكون موضع اهتمام من احد فالشعوب العربية تكافح وتسعى لمحاربة الامية فهل تعمل على خلق أمية جديدة وتقطع صلتها بالماضي قطعاً كهذا ·

فلا غرو والحالة هذه ان يكون رجال وزارة المعارف قد أجمعوا على رفض اقتراح العالم الهولندي فقد قيل قديماً للعرب (خذوا لغتكم من أعجمي) · فهل يراد اليوم ان يقال (خذوا حروفكم من أعجمي ايضاً) اه كلام المقطم ·

وكان المستشرقان الافرنسيان السيدان ماسنيون وهو من اعضاء مجمعنا وبينار رئيس البعثة العلمانية في الشرق قد نقدما بمثل هذا الاقتراح ونصحا أصدقاءهما العرب بكتابة لغتهم بالحروف اللاتينية ، فردّ عليهم الاستاذ فارس الخوري احد اعضاء مجمعنا بمقال نشرته صحف سوريا في أواسط كانون الاول سنة ١٩٢٨ نأخذ منه الخلاصة الآتية :

الاستاذان العالمان ماسنيون وبينار الافرنسيان قد اشتهرا بصداقتهما للعرب عامةً وللسوريين خاصةً والراجح عندي انهما حسنا النية في النصيحة الجريئة التي أسدياها للسوريين في حفلات التكريم المقامة لهما في بيروت باستعمال الحروف اللاتينية في الكتابة العربية · فهما يحسبان بما أظن ان هذه الطريقة تسهل على عمال المطابع تنضيد الحروف وفكها وتوزيعها وتخفف عناء القراءة العربية على أبناء الغرب وتيسر نقل الألفاظ الافرنجية وإدماجها في المطبوعات العربية وتجعل القراءة العربية الصحيحة في مقدور كل قارئ بادخالها الحركات بين الحروف ·

هذه هي المزايا الاربع التي يمكن الادلاء بها في جانب اقتراحهما لتأييده ولكن هناك من المساوئ ما يفقد هذه المزايا قيمتها و يجعلها اموراً تافهة لا يؤبه لها ·

نحن لا نستطيع احتذاء حذو الأتراك من هذه الجهة لان بين لغتنا ولغتهم بوناً

شاسعاً وفروقاً جمة تجعل متعذراً علينا ما اختاروه لانفسهم . وهاانا نسرد بعض الاسباب الجوهرية التي تحملنا على عدم الأخذ بنصيحة السيدين الافرنسيين :

١ — عندنا الحروف ث ح خ ذ ص ض ط ظ ع غ ق وهي احد عشر حرفاً ليس لها مقابل في الحروف اللاتينية . فنبقى مضطرين عند قبولنا هذا الاقتراح لوضع اشكال جديدة لهذه الحروف وبذلك نفقد مزية سهولة القراءة على الاجانب عن اللغة وتصبح كتابتنا شكلاً جديداً تختلط فيه الحروف اللاتينية برموز أخرى على مثال ما هي الحال في كتابة اللغة الروسية .

هذه العقبة هان على الأتراك اجتيازها لانهم لا يلفظون هذه الحروف بمخارجها العربية الاصلية بل يخففونها ويجعلونها دانية مما يقاربها من الحرف اللاتيني فهم يلفظون الذال والزاي والضاد والظاء بصوت واحد ويكتبونه بالحرف اللاتيني Z ويلفظون الثاء والسين والصاد بصوت واحد ويكتبونه S والتاء والطاء بصوت واحد يكتبونه T والحاء والخاء والهاء بصوت واحد يكتبونه H والقاف والكاف بصوت واحد يكتبونه K والغين جيماً حلقية يكتبونه G واما العين فيلفظونها همزة او الفاً ويكتبونها كذلك .

فجميع الحروف التي استعاروها من العربية او الفارسية وليس لها مقابل في الابجدية اللاتينية أدمجوها بحروف أخرى تقاربها ووحدوا اللفظ بينها .

اما اللغة العربية فلا يستطاع فيها هذا التبديل والتلاعب ولا بد لكل حرف منها من شكل خاص به يصاحبه لفظه الخاص ايضاً وبدون ذلك لا تبقى القراءة الفصحى التي هي المزية العليا لهذا اللسان الرنان بل تنقلب فصاحتنا الطلية رطانة أعجمية .

٢ — خزانة الكتب العربية هي ثروة قيمة ليس للعرب وحدهم بل للمدنية والثقافة القديمة كلها فاذا اخذنا الابجدية اللاتينية نفقد هذه الثروة النفيسة ويفقدها معنا العالم أجمع ولا يمكن ان يعاد طبع جميع هذه الآثار الغالية بالحروف الجديدة فتبقى الكتب الموجودة جميعها مجموعة ألغاز ومعميات لا يحل رموزها من ابناء الجيل الآتي الا المنقبون عن الآثار وبارتكاب هذه الغلطة الفادحة نقطع علائقنا مع الماضي وننسف كل جسر يوصلنا به بدون ان يكون عندنا جديد يصلح للحلول محله . اما الاتراك فليس في خزائنهم هذه الثروة الثمينة وبالفصل بين حاضرهم وغابرهم لا يخسرون شيئاً مذكوراً .

٣ — حروف العلة في العربية ؟ ثلاثة فقط تكون طويلة وهي أ ، و ، ي وتكون قصيرة وهي الفتحة والضمة والكسرة لكل منها شكل واحد في اللفظ اينما وجدت اللهم ما عدا الامالة المقول بها في بعض القرآآت المهجورة فلسنا والحالة هذه بحاجة ماسة للاستعانة باحرف العلة اللاتينية للتمكن من اللفظ الصحيح على حين ان في التركية صوتين للعلة لا يمكن اظهارهما بالحرف العربي وهما (u) (eu) فما كان عندهم باملاء متشابه مثل (كول) صاروا يكتبونه اليوم بحسب لفظه gul و geul وتبقى كل كلمة لمعناها .

٤ — الكتابة العربية الحاضرة هي نوع من الاختزال تتوفر فيه السرعة والاقتصاد وما يكتب منها في سطر واحد يقتضي سطرين او اكثر بالحرف اللاتيني فما هي الفائدة التي نتوخاها من تركها واتخاذ طريقة أخرى تكلفنا وقتاً وقرطاساً أضعاف مانحن ملزمون به الآن ؟ . طلب الي رجل انكليزي مرة ان أقرأ له مكتوباً عربياً جاءه من صديق له وتناولت المكتوب وهو بضعة أسطر دقيقة و بدأت أتلو مضمونه عليه بالانكليزية وهو يستغرب طوله وغزارة محتوياته حتى ارتاب بصحة الترجمة ولم يصدق ان هذه الأقوال الكثيرة والجمل الطويلة يمكن وجودها في تلك الأسطر القليلة .

٥ — الحرف العربي أجلى للنظر بسبب التباعد بين أشكال حروفه فلا يلتبس الواحد منها بالآخر وتستطاع قراءته بالنهار والليل وعلى النور الضئيل بدون الاستعانة بالعوينات وهذا يعرفه كل مصاب بقصر البصر او ببعده ، انا اليوم اقرأ الكتابة العربية بدون صعوبة واما الكتابة الافرنجية فقد أصبحت مضطراً الاستعانة بالعوينات على قراءتها . وهذه مزية للحروف العربية لا يستهان بها بل تكفي وحدها لتفضيلها على غيرها فانك تنظر الى الصفحة الافرنجية فلا تكاد تتبين حرفاً من حرف الا بعد امعان النظر واجهاد البصر وهذا هو السبب في ما اعتقد لاضطرار اكثر الاوربيين لاستعمال العوينات وهم بعد في عهد الشباب بينما قراء العربية يبقون قادرين على قراءتها بالعين المجردة حتى في سن الشيخوخة .

٦ — نحن السوريين لسنا مستقلين باللغة فليس من حقنا ان نستأثر بهذه البدعة المنكرة ونقطع مع اخواننا في العراق ومصر وجزيرة العرب وشمالي افريقية تلك الصلات الراسخة التي تربطنا بهم .

٧ — الحركات اللغوية عندنا صعبة الادراك لان اكثرها سماعية لا تعرف بالقياس ولان اللغة العامية المحكية لا تكترث بها فترى الناس يلفظون الكلمات غلطاً ولا يبالون فاذا عمدنا الى الكتابة بالحروف اللاتينية وجعلنا الحركات الثلاث حروفاً تكتب في صلب الكلمة نقع في ورطة جديدة هي اغلاط الاملاء . اليوم قلما تجد قارئاً يقرأ بدون لحن في الحركات واكثر القراء الخاون ولكن فيما بعد لا تعود تجد كاتباً يكتب بدون غلط في الاملاء وهذا أفظع من ذاك . مثال ذلك انك تكتب اليوم الحضارة والبداوة بدون ان تعرف حركة الحاء والباء فيهما وتترك للقارئ حريته ليقرأهما كما يشاء ولكن اذا كتبت بالحرف اللاتيني لا تستطيع ان تضع سواداً على بياض قبل ان تعرف هذه الحركة لانك مجبر على كتابتها في صلب الكلمة وفي مثل هذه الحالة ينتشر التضليل والفوضى فيكتبها كل واحد كما يتراءى له ويضيع القراء بين الصحيح والفاسد . وما اكثر الالفاظ التي لا يعرف تحريكها الصحيح الا الراسخون في العلم .

نحن لا ننكر ان الكتابة العربية في حاجة الى شيء من الاصلاح فلا يبقى عليها سبيل لمنتقد او متهجم وهذا الاصلاح يندمج في امرين :

الاول : الحركات ، وهي في حالتها الحاضرة متعذرة الادخال عند لزومها بين الحروف فتوضع فوقها او تحتها وهذا لا يستطاع نقله للطبع الا بصعوبة عظيمة ، لان المطابع غير مجهزة بحروف محركة في قوالبها واذا تجهزت بها اقتضت لهذه الغاية مئات من القوالب فوق الموجود منها وهذا يربك الطباعة ويجعل نفقاتها فوق الاحتمال مع هذا الكساد فلاجل تلافي هذا النقص يمكن تحويل الحركات الى أشكال حرفية يدخلها الكاتب في كتابته عندما يكون واثقاً من صحتها ويرى لزوماً لادخالها فتنتقل الى المطبوعات بدون عناء وتهون القراءة الصحيحة على ابن اللغة وعلى الاجنبي عنها . اما الحركات النحوية الاعرابية فلا بأس من إهمالها في الكتابة لان اكثر القراء يعرفونها او يهملونها .

الثاني : تعديل الحروف المطبعية ليكون لكل منها قالب واحد سواء وقع طرفاً او وسطاً فلا يبقى احدها راكباً فوق الآخر كما هي الحالة الآن . فانك ترى لحرف اللام مثلاً عدداً كبيراً من القوالب بحسب انفرادها او توسطها او تطرفها او مع حرف آخر يسفلها مثل ل ا لا لى لي لج لخ لم ، فيجب ان يكون في المطبعة قوالب لكل واحد من

هذه الأشكال وغيرهما مما لا يعرفه الا اهل هذه الصناعة واي إرباك أعظم من هذا في تنضيد الحروف وفكها وتوزيعها ؟ كان المرحوم علامة اللغة الشيخ ابراهيم اليازجي قد وضع اشكالاً للحروف لا تختلف عن اوضاعها الاصلية وانما يمكن صفها الواحد لصق الآخر بدون حاجة الى تراكيبها وتنوعها فيبقى للحرف الواحد شكل واحد اينما وقع وهكذا لايكون أمام المرتب في المطبعة سوى ٣٩ بؤرة للحروف بدل المئات الموجوده امامه اليوم . وقد طبع نماذج عنها في مجلة الضياء فكانت جميلة متناسبة وتمنى رواجها كل من رآها ولا ادري ما الذي اقعده عن تعميم العمل بها سوى ضيق ذات اليد وفقد المناصرين .

اذا تم للابجدية العربية الاصلاح من هاتين الجهتين تصبح سالمة من العيوب وافية بالغرض وقد اشرت على الخطاط الشهير نجيب بك هواويني أن يتحف الناس بشيء من آثار نبوغه في هذا الباب فلايكون حظه من التقدير والتدوين بعيداً عن حظ ابن مقلة . فهل له او لغيره من الخطاطين واصحاب المطابع ان يضع اشكالاً لقوالب الحروف المطبعية تفي بهذه الاغراض وتزيد الكتابة العربية رونقاً وجمالاً وكما تفوقت هذه اللغة بفصاحتها وبلاغتها تبقى متفوقة بجمال كتابتها ؟

لا أريد ان اترك القلم قبل ان أسأل الاستاذين الفاضلين ماسنيون وبينار لماذا خصانا بالنصيحة بتبديل حروفنا لاصلاح كتابتنا ولم يقترحا على قومهم اصلاح الاملاء الافرنسي الذي هو أحوج الى التنقيح من اي كتابة أخرى . جميع اللغات تقرءيا تقرأ كما تكتب ماعدا الافرنسية (وبعض الألفاظ الانكليزية) فان بين املائها وقراءتها بوناً شاسعاً اذ ان حروفاً كثيرة في كل كلمة تقرءيا تكتب ولاتقرأ وبعض الحروف تلفظ بغير الصوت الذي وضعت له . وقد اكد لي العارفون ان تسعين بالمئة من الافرنسيين انفسهم يغلطون بالاملاء وكل الاجانب عنهم ونحن من جملتهم يشكون صعوبة التهجئة والقراءة الصحيحة بهذه اللغة . خذ لك مثالاً كلمة (temps) فانها تلفظ طان ولو لفظتها كما تكتب لوجب ان تلفظها (تمبس) وهو فرق غريب بين اللفظ والهجاء واكثر الكلمات الافرنسية على هذا النمط كما ان اللفظ الواحد عندهم تمكن كتابته باشكال متعددة بدون ان يتبدل لفظه وهذا ليس له مثيل في لسان آخر وهو من الصعوبة بمكان .

اذا كانت القراءة الصحيحة عندنا صعبة على غير الراسخين في علم اللغة بسبب إهمال الحركات فان الاملاء الافرنسي متعذر على غير الراسخين ايضاً . وقد كان الاولى بحضرة الاستاذين الكريمين أن يسميا اولاً باصلاح كتابة لغتهما قبل ان يعمدا لهذه النصيحة الجريئة في بلاد الشرق ونحن على كل حال نشكرلها اهتمامها بشؤوننا وعنايتهما بمصالحنا .

كتاب مناقب بغداد

« هو لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ »

تلوت تلك المعركة القلمية التي قامت بشأن كتاب مناقب بغداد وهل هو للامام عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ام لحفيده المسمى باسمه و كنيته ولقبه المقتول مع ابيه يوسف سنة ٦٥٤ .

فتصفحت كتاب الدر المنضد في رجال الامام احمد للعلامة عبد الرحمن بن محمد العمري وهو من مخطوطات المكتبة الأحمدية في حلب وقد قال في أوله انه اختصره من طبقاته الكبرى المسماة بالمنهج الاحمد فوجدت فيه ترجمة للامام عبد الرحمن بن الجوزي في عشر صفحات فاستنسختها وقد عدد فيها ١٩٦ مصنفاً له ولولا خوف الإطالة لسردتها هھنا وقال بعدان عددها : وتصانيف أُخر غير هذه وقيل ان له حواشي على صحاح الجوهري ومآخذ عليها واختصر فنون ابن عقيل في بضعة عشر مجلداً .

وقد وضعت فيما نقلته ارقاماً لمصنفاته التي ذكرها فبلغت ماتقدم فجاء في رقم (٨٣) مناقب بغداد مجلد . فلم يبق هناك من ريب في ان الكتاب هو لعبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٧ هـ لا لحفيده عبد الرحمن المتوفى سنة ٦٥٤ .

وقد قدمت ان الدر المنضد هو مختصر من المنهج الا حمد فيغلب على الظن ان المؤلف هناك سرد اسماء مصنفات ابن الجوزي فالمرجو من الاستاذ الشيخ عبد القادر المبارك عضو مجمعنا العلمي الذي عنده نسخة من هذا الكتاب ومن الأديب يوسف اليان سركيس الكتبي في مصر الذي نقل نسخة من هذا الكتاب بالمصور الشمسي ولا أدري في خزانة من هي ومن

الاستاذ الشيخ سعيد الكرمي الذي عنده قطعة كبيرة من هذا الكتاب كما ذكر ذلك الأديب عيسى اسكندر المعلوف في مجلة المجمع قديماً ان يرجعوا الى هذا الكتاب ويفيدونا هل بين هذه المصنفات ذكر لكتاب مناقب بغداد ٠

ويغلب على ظني ان صاحب المنهج اخذ ترجمة ابن الجوزي من ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ومنه نسختان في المكتبة الظاهرية فالمرجو من الاستاذ حسني الكسم مدير هذه المكتبة ان يفيدنا هل لهذا الكتاب ذكر بين مصنفاته ٠

فاذا كان قد ذكر في هذين الكتابين او في احدهما فلا يبقى هناك مجال للشك في نسبة الكتاب الى الامام ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ ونقطع جهيزة قول كل خطيب ويكون ما ذكر في كتاب المناقب من حوادث سنة ٦٥٤ من زيادات الحفيد اوغيره وهذا مما لا يستغرب فقد رأينا لذلك نظائر : هذا كشف الظنون لكاتب چلبي فان صاحبه توفي على ما أذكر الآن حول سنة ١٠٧٠ وقد أدرج فيه ذيله وطبعا معاً بدون تفرقة بين الأصل والذيل فترى فيه من توفي من المؤلفين في وسط القرن الثاني عشر وقلَّ من الناس من يعلم ذلك ٠

عضو المجمع العلمي

محمد راغب الطباخ

مطبوعات حديثة

كتاب

« فلسفة اللغة العربية وتطورها »

للاستاذ جبر ضومط طبع في مطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنة ١٩٢٩ م
في ٢١٣ صفحة

هذا الكتاب يتضمن ما أنشأه الاستاذ جبر ضومط عضو مجمعنا العلمي بين سنتي ١٨٨٨ و١٩٢٨ م من المقالات والخطب القيمة التي تبحث في تاريخ اللغة العربية ونهضة الأقوام المتكلمين بها وفلسفة نشوئها وتطورها ووسائل ترقيتها وهي نحو ٢٣ فصلاً مفتتحة بمقدمة بقلم المرحوم الدكتور يعقوب صروف هي بعض الخطبة التي كان أعدها قبيل وفاته لتقرأ في اليوبيل الذهبي الذي أقيم لتكريم الاستاذ جبر . على ان المقالات التي تضمنها الكتاب لم تكن كلها في موضوع فلسفة اللغة وتطورها بل ان بعضها في موضوعات أخرى تاريخية واجتماعية وادبية لكن جمهرة المقالات متعلقة بالموضوع المذكور وكل ما كتب فيها يرمي الى تعزيز رأي المؤلف في فلسفة اللغة العربية وتطورها . وخلاصة مايرمي اليه في ذلك هو ان الامة العربية دخلت في طور جديد من الحياة فيجب ان تدخل لغتهم ايضاً في طور حياة جديد ينطبق على اجتماعهم و يناسب طورهم الجديد والا فان وقوف اللغة موت لها فتضطر الامة اذ ذاك الى ان تلبس لغتها قميصاً من اللغات الاخرى يساعدها على تطورها وقد شرح المؤلف هذه الطرق التي تحيي اللغة العربية وتفنن في ذلك ما شاء وشاءت براعته . وان أسلوب الاستاذ يمتاز بالسهولة وجودة التقسيم وحسن ايراد الشواهد على مايريد اثباته . وقد أعجبنا من قوله — وكل أقواله معجبة — ما جاء في خطبته التي تلاها في جامعة بيروت الاميركية وجعل عنوانها (اللغة العربية : ما أخذت وما أعطت) وقد أورد قوله هذا مستدلاً به على سعة اللغة العربية وغزارة مادتها ومؤاتاتها لما يطلب منها من اصطلاحات العلوم اذا أحسن هذا الطلب وعرفت الطرق الموصلة اليه : فذهب الى ان علماء العرب ان كانوا احتاجوا الى علوم الاوائل فنقلوها الى لغتهم كعلم المنطق والفلسفة

وغيرهما فان لغتهم نفسها لم تحتج في هذا النقل الى لغات الاوائل بل كانوا ينقلون مباحث العلوم و يفرغونها في كلمات من عند لغتهم وضرب لذلك مثلاً فقال : « ان علماء العربية اخذوا علم المنطق عن علماء اليونان إما رأساً وإما نقلاً عن السريانية ولكنهم لم يأخذوا الفاظ هذا العلم كما هي عن اليونان بل قالوا : موضوع ومحمول · وقضية وقياس واستنتاج · ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة · والمقولات العشر · والقول الشارح · والتصور والتصديق · و كلي وجزئي · وقضية كلية · وقضية كلية مهملة · وقضية كلية مسورة · وهلم جراً من مصطلحات هذا العلم » ثم قارن بين مافعله علماء العرب وما فعله علماء الغرب فقال : « وأخذ العلماء الغربيون علم المنطق عن اليونان كما أخذه علماء العرب إما رأساً او عن اللاتينية وأخذوا لغاتهم ايضاً عن اللغة اليونانية او اللاتينية لانهم قالوا : « سبجكت و بريديكت » للموضوع والمحمول · وقالوا : كتيغوري اي المقولات العشر وهلم جراً اي ان لغتهم اخذت نفس الحدود عن اللغة اليونانية بخلاف اللغة العربية فانها استغنت عن ألفاظ تلك الحدود اليونانية بألفاظ من لغتها العربية ادت معانيها تمام التأدية من غير صعوبة ولا التباس · وماقيل في المنطق يقال في علوم الفلسفة فان علماء العربية اخذوا هذا العلم عن غيرهم اما لغتهم فلم تحتج الى لغة القوم ورأت فيها من الألفاظ ما يؤدي معاني ألفاظ ذلك العلم فقالوا : موجود ومعدوم · وعرض وجوهر · وحال و كسر وانكسار · وتأثر وأثر · وماهية وهوية · ومقتضي ومانع ومعارض · وقالوا : الماهيات مجعولة بجعل جاعل وغير مجعولة · والعقل الاول والمبدأ الفياض · وغير ذلك من مصطلحات الفلسفة كثير · ولا يخفى ان كل هذه الألفاظ من صميم الألفاظ العربية · ومن عرف هذه المصطلحات بالفرنسوية او الانكليزية علم ان أغلب هذه الألفاظ مأخوذة عن اللاتينية او اليونانية بل علم ان علماء هاتين الأمتين ما زالوا يؤلفون في اللغة اللاتينية الى عهد قريب لعدم استطاعة لغاتهم اولاً ان تحمل هذه العلوم بنفسها بخلاف اللغة العربية فانها تحملتها حالاً وأصبحت تلك العلوم كأنها موضوعة فيها ابتداء وكان من علماء اللاتين والجرمان انهم ترجموا في بادي أمرهم اكثر تلك العلوم عن اللغة العربية ·

وهكذا كان الامر ايضاً في علوم الطبيعة كالطبيعيات والطب والكيمياء والفلك

والنبات والحيوان : فان اللغة العربية لم تحتج في كل هذه العلوم الا الى الالفاظ التي تستعار استعارة لان مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة في البلاد العربية لانها لا تعيش فيها وتعيش في غيرها من البلدان . فأخذوا الاسم باخذ المسمى وهكذا الحال فيها لو كان اللفظ المأخوذ اسماً لآلة مخصوصة صنعها صناع تلك الامم قبل ان عرفها العرب والعربية بمئات من السنين » اه .

فلله در المؤلف ما أقدره على تصوير سعة لغتنا العربية واستغنائها ومبلغ طاقتها على تمثيل العلوم التي تترجم اليها .

هذا نموذج مما كتبه و يكتبه العلامة جبر ضومط في خدمة لغتنا العربية منذ اكثر من خمسين سنة وما زال على بلوغه الكبر يدأب ويعمل في خدمة هذه اللغة الشريفة والدفاع عنها وتنبيه ابناء قومه الى الاستفادة من مواهبها . فنسأل الله ان ينسأ في عمره ليرى ما يحبه لها من الرقي والازدهار . « المغربي »

حياة محمد

La vie de Mohamet
par
Emiel Dermenghens

بين الشرق والغرب جدل يرجع معظمه الى ما ركب في طبائع البشر من المطامع . فاي منهما قويت شوكته ، واشتد ساعده ، نازل صاحبه يعتدي عليه ، و يسلبه استقلاله ، سنة القوي في الضعيف .

وقديماً كانت هذه الخصومة ، بيد انها كانت خصومة صريحة ، ومن آيات الشرف الصراحة . يهاجم الشرقُ الغربَ ، والغربُ الشرقَ باسم الدين ، ومن اجل السلب ، ويسمي كل منهما عمله : جهاداً اوحرباً مقدسة ، وغزواً . من غير مواربة ولا مداهنة .

ودارت الايام دورتها ، فتهذبت مظاهر الناس ، وظلت نفوسهم على ما كانت عليه من الطمع والجشع ، وسلب القوي حق الضعيف ، واعتدائه عليه . ولكن باسم التمدين وهو اسم جديد أطلقته سياسة العصر الحاضر على الغزو والحروب الدينية . والغريب ان الامم من قبل — اي في همجيتها . . . — كانت تقاتل من اجل دينها ، فاذا بعض

أم الغرب اليوم تقاتل مأجورة حتى في سبيل دين غير دينها .

وهذا الاعتداء الطريف في بردة التمدين ، يتطلب « دعاية » تتقدم الفتح تمهيداً لمقاصده ، او تتبعه تثبيتاً لقواعده ، تظهر الضعيف في ثوب خلَق من الجهل والشقاء ، فيعذر القوي في التغلب عليه « لتمدينه » . وما هو الا ان تنشب فيه أظافره حتى يمزق أديمه ، ويمتص دماءه .

لذلك انطلقت ألسنة رجال العلم من الأقوياء ، وممن يمت اليهم بسبب ، يؤلفون عن المستضعفين التآليف المبكية المضحكة . يلفقون لهم تاريخاً غير تاريخهم ، و يخلقون لهم قوميات غير قومياتهم ، و ينكرون عليهم حقهم في الحياة ، ويسمون عملهم بعد ذلك علماً وتاريخاً .

حال يدعو المستضعفين — ونحن منهم — ان يتدبروا ما يقال فيهم بحذر و يقَظة ، ليعرفوا ما الذي يراد بهم مما يؤلف عنهم .

كانت هذه الفكرة تملأ رأسي وانا أنظر في الصفحة الاولى من كتاب (حياة محمد) ومررت بالمقدمة فاذا المؤلف يقول :

« أردت ان أرسم لمحمد صورة صحيحة على قدر ما يمكن ، وذلك كما رأيته حياً في حديث الكتب ، وفي النفوس الحية من اولئك المؤمنين به » .... « واتخذت في كلامي عنه خطةً وسطاً ، بين اولئك المستشرقين المُفرِطين فيه والمُفرِّطين . فمنهم من يجعله فوق اهل زمانه ، يختلف عنهم في كل شيء ، ومنهم من يجعله شبيهاً بهم في كل شيء . وبعضهم يزعمه مات من النَّهَم ، وآخر من الصوم » .

« ومما يؤسف له ، ان الاب لامنس — وهو من أحدث المؤلفين ، واكبر الادباء المتخصصين — كان من اكثرهم تعرضاً فجاءت كتبه القيمة الممتعة مشوهة بكرهه الاسلام ، ونبي المسلمين . ولقد طبق هذا العالم اليسوعي على هذا التاريخ تلك الاساليب الانتقادية القاسية التي وجهها بعضهم الى النصرانية » .

قرأت هذا كله في مقدمة الكتاب ، فلم يغير الا قليلاً مما كان علق بنفسي . اذ المقدمات شيء ، وما يكتب بعدها شيء آخر . واشد ما يختلفان .

على اني ما اخذت في قراءة الصفحات الاولى حتى رأيتني مسوقاً الى المضي حتى آخر صفحة من هذا الكتاب . فاذا المؤلف صادق في قوله ، ماض على الخطة التي اختطها

لنفسه من الصراحة والاعتدال · نزه قلمه عن التعصب على النبي ، وتجانف عن التسليم الاعمى · فصوّب حيث رأى صواباً ، وخطأ حيث ظن خطأ ·

سرد (حياة محمد) باسلوب قصصي — وكتابه هذا حلقة من سلسلة سماها (قصص العظماء) — فكان أسلوبه شائقاً ، وعبارته سهلة على ماتقتضي الرواية و يلتذه القاريء · وصف نشأة محمد (ص) الاولى وصفاً دقيقاً ، وأفاض في ما لقيه من العقبات والأهوال في نشر دعوته ، وأشاد بثباته وعزمه ، وعفوه وحلمه ، وعظمته وتسامحه ، وأتى بمثال على ما كان يوصي به رجاله في الغزوات من معاملة الضعفاء والشيوخ والاولاد والنساء ، معاملة حسنة ، وان لا يعتدوا على ساكن · ولا يتلفوا زرعاً · ولا يقطعوا شجراً · و يقول المؤلف : وهذا ما يقل في التاريخ مثله ·

ونوّه بترقيته لقومه ، ونظم شملهم على أساس جديد لا سابق عهد لهم به ·

وقال : اذا لم يأت الرسول بالمعجزات التي اتى بها غيره من الرسل ، فحسبه معجزة انه جمع اليه اولئك العرب الجفاة الذين طبعوا على الفوضى ونشأوا على الخصام والقتال فلم يعرفوا الحياة العامة قبل مبعث الرسول ·

ونوّه كذلك بما كان من عمل محمد في رفع مستوى المرأة ، وبما أوجده لها من حقوق · وانه أوجب معاملتها بالحسنى ، ومنعها العزوبة وهو اكبر خطر يهدد حياتها اليوم · واثنى على خديجة وعلى جهادها الى جانب النبي وذكر مكانتها عنده ·

وأعجب بما كان يضعه الرسول من شرائع يأتي بها على مهل ، مما يتفق وروح التشريع ، والغرض منه · قال وكان محمد رسولاً ومشترعاً وسياسياً وعسكرياً ·

قال : وصدقُ محمد ثابت لا يمكن ان يوضع اليوم موضع الشك والريبة ، وحياته على ما فيها من هفوات — لم يكن ينكرها — تشهد له بانه كان على ثقة من رسالته · ولقد تحمّل هذه الرسالة بشجاعة ، كأنها عبء كان عليه ان يكون اول من يستقل باثقل نصيب منه ·

وذكر جهود المهاجرين في مُهاجَرهم · وانهم دخلوا يثرب ضعافاً فقراء ، فعملوا وجَهدوا حتى أثرى نفر منهم · نازعوا اليهود في تجارتهم فغلبوهم على جزء منها · وأدخلوا على المدينة روحاً جديداً من الهمة والسعي · ويخيل اليك وهو يصور هؤلاء

المهاجرين في كدحهم ، انه يصف فريقاً من الامة الاميركية بنشاطها وجهادها .

ويمتدح عمل الاسلام في الفن والحضارة في صفحات ربما نقلنا شيئاً منها في مقال آخر .

وهو مع هذا يأخذ على الرسول فتكه ببعض من فتك بهم ويقول : « وكنا نود ان لا نسجل مثل هذه الحوادث على الرجل الذي جمع في نفسه ماجمع من الشرف والعظمة . ولعل محمداً من حيث هو انسان ، كان مضطراً للدفاع عن نفسه ذلك الدفاع الذي تجيزه حقوق عصره وبلاده ، غير انا كنا نريد لرسول الله ، الباعث بني قومه من بعد موتهم ، ان يكون اكثر صفاء ، واكثر ترفعاً عن التأثر بالعوامل البشرية ، حتى لا يقع شيء من الظل على هذه الصورة الوضّاءة من كل ناحية أخرى من نواحيها » .

ويقول ان المسلمين كانوا في فجر الاسلام اقرب الى النصارى منهم في القرون التي تلت . ويلقي تبعة ما وقع من خلاف على المفسرين والمحدثين من المسلمين الذين خرجوا عن الاستئلاف والقربى اللذين ارادهما الرسول . ولا يبرئ النصارى مما رمى به المسلمين ، فهم في تآليفهم قد رموا المسلمين بما هؤلاء منه براء ، واتهموا رسولهم تهماً كاذبة شنعاء .

والذي ننكره عليه انه اخذ ببعض خرافات لا يجوزها العقل ، ولا يقول بها من المسلمين غير العامة . وهذا قليل جداً .

وانه أراد ان يجعل الاسلام صورة كاملة عن النصرانية ، لذلك يزعم ان الاختلاف بين الدينين انما نجم عن تحريف في القرآن . . . ويعلل ذلك تعليلاً غير مقبول . وهذا الزعم يحمل القارئ على اتهام المؤلف بانه استمد رأيه هذا من شعور ديني ان لم يكن فيه مختاراً فقد غلب عليه .

وعلى الجملة فهذا الكتاب من خير ما أخرجه غربي عن محمد (ص) . فنشكر للمؤلف جهوده في العمل وصدقه في الرواية . عارف النكدي

احاديث المجد والوجد
— لابي الفضل الوليد —
« قرنة الحمراء — المتن »

ابو الفضل الوليد عربي بلقبه واسمه اللذين اختار ، عربي ببلده (المتن) وبلدته (قرنة الحمراء[1]) . وهو فوق هذا عربي بلسانه وروحه ، ثابت على عقيدته العربية : مقيماً ومهاجراً ، في الدورين الغابر والحاضر .

وكم من اخواننا الذين كانوا عرباً ايام الدولة العثمانية لامر ما ، عملوا على هدم اركان هذه الدولة بحجة النصرة للعرب وللقضية العربية ، فلما قضي الامر عاد كل منهم الى حقيقته التي كانت تخفي ، وأنسته المرتبة التي يشغل ، والسياسة التي انتحل ، تلك المؤتمرات ، وهاتيك العهود .

---

(١) لما فتح خالد بن الوليد مشارف الشام ثم تغلغل الى داخله ، هاجر الى بعض جبال لبنان قبائل عربية نصرانية تستعصم به . وبعد ان فتح العرب لبنان كله هاجرت اليه قبائل أُخرى هجرة ثانية نزل اكثرها في الشوف ثم المتن .

ولقد أبقى العرب للاماكن القديمة اسماءها القديمة — واكثرها سرياني — كما فعلوا في سائر الشام . وأطلقوا الاسماء العربية على ما احدثوا من القرى والدساكر . من ذلك :

المتن : وهو ما ظهر من كل شيء . ومن الارض ما ارتفع . وقيل ما ارتفع واستوى ومن نظر الى المتن في لبنان علم ان من سمى هذا الموضع انما كان عربياً قحاً .

والقرنة : الطرف الشاخص من كل شيء . يقال (القرنة الحمراء) على الوصف كما يقال (قرنة الحمراء) على الاضافة الحقيقية او على حذف المضاف . وقد جرى العرب كثيراً في تسمياتهم على مثل هذه الاضافة او على حذف المضاف . فمن الاول باب الصغير (بدمشق) ووادي الكبير (بالاندلس) . ومن الثاني وقف العثمانية اي المدرسة العثمانية فقولنا (قرنة الحمراء) قد يراد به الاضافة الحقيقية الى الحمراء او ان هناك محذوفاً هو الهضبة او الرابية كأن نقول : (قرنة الهضبة الحمراء) او (قرنة الرابية الحمراء) وما اشبه او ان العامة استثقلت اداة التعريف فقضت عليها .